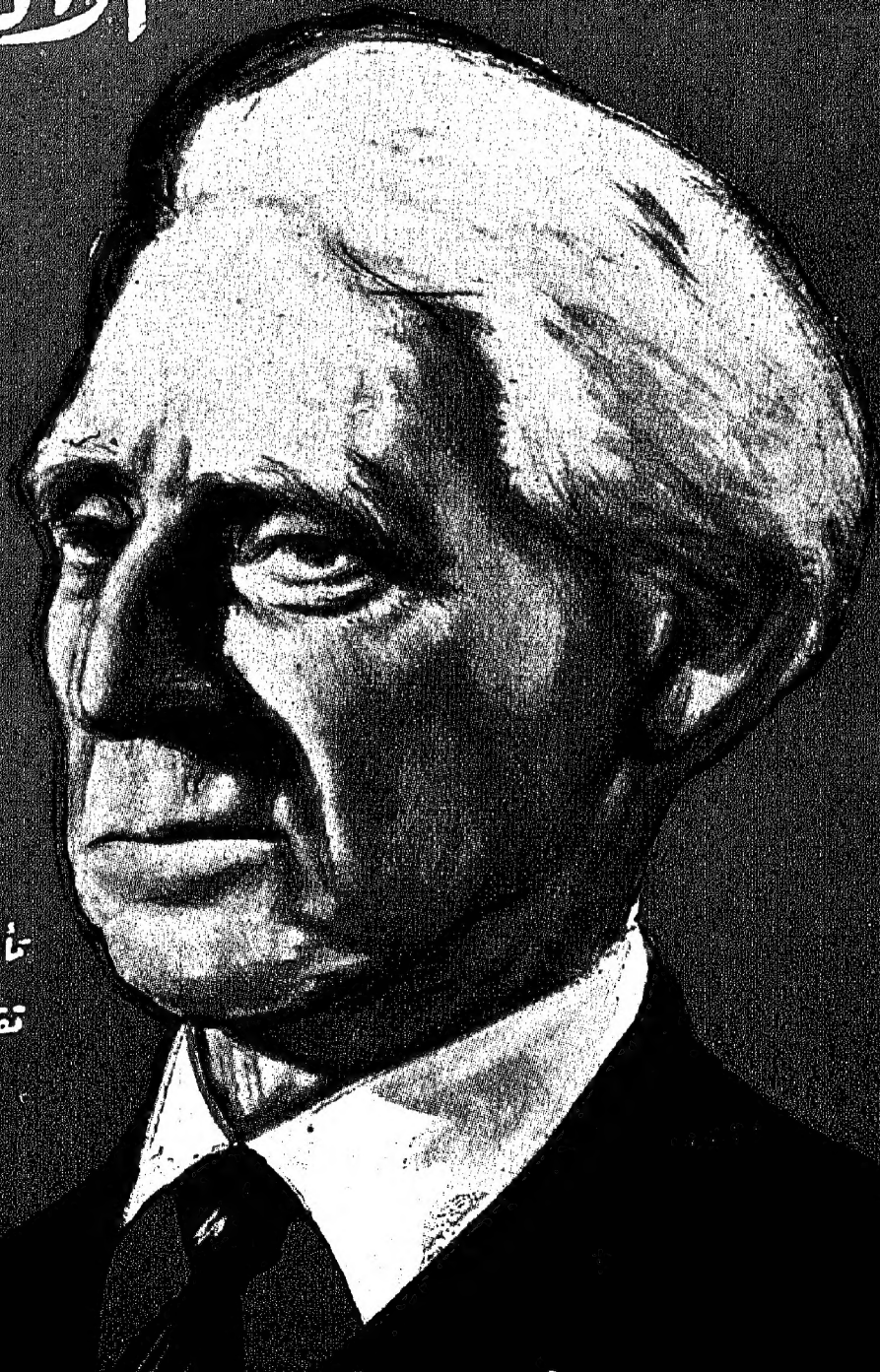


مذاهب و شخصیات

برنارد راسل الإنسان

تأليف ريس عوص
تقديم محمد عطا



R9

مذاهب و شخصیات

برتراند راسل الإنسان

تأليف
رسمي موضوع

الإهداء

الى سيادة رئيس الجمهورية

- الى بطل السلام اهلى حديثى عن رائد السلام
- الى رجل يفيض قلبه بحب الخير والانسان اهلى
- حديثى عن رجل يجيش فؤاده بحب الخير والانسان

المؤلف

رمسيس عوض

مقدمة

بقلم الاستاذ محمد عطا

لقد سبق للدار القومية للطباعة والنشر أن نقلت أغلب مؤلفات الفيلسوف العالى « برتراند رسل » الى قراء العربية ، واليوم نقدم اليهم ترجمة لهذا الرجل العظيم تحدث فيها المؤلف رمسيس عوض عن حياة برتراند رسل منذ نشأ الى يومنا هذا ، ولم يقف الكاتب عنده مجرد السرد بل انه حلل كثيرا من مواقفه ، واستعرض العوامل التى أحاطت بهذه المواقف .

ان القارئ سىرى فى هذا الكتاب افكارا ناثرة لرسل قد لا تتفق وافكارنا وتقاليدينا ولكن الامانة العلمية حدت بالمؤلف الى أن يذكرها حتى يلم أبناء العربية بأفكار هذا الفيلسوف الماما كاملا ، ويعيشوا معه الحياة التى عاشها والصعاب التى صادفها ، والمشاق التى احتملها فى سبيل افكاره المتحررة .

ان برتراند رسل له آراء ثورية فى التربية، وفى الفلسفة وفى الاجتماع وفى السياسة فهو مثل العالم الشجاع الذى يبدى الراى الذى يعتنقه وان اسخط عليه الراى العام .

ان برتراند من العلماء القلائل الذين نلدروا انفسهم لخدمة السلام والقضاء على الحروب ، ورفاهية البشرية .

انه ما زال يناضل الى اليوم وان تقدمت به السن ، وطال به العمر ويكفى هذا لتقدير هذا الرجل العظيم الذى لم يلق السلاح ولن يلقه ما دام فيه نفس يتردد ، وروح تنبض .

لقد حوكم مرات ودخل السجن مرات ، وجرح وأهين ولكنه ظل وفيا لآرائه ، مقيما على عهده ، ضاربا المثل فى الشجاعة الأدبية والثبات على المبدأ .

والكتبة العربية ضئيلة بالمؤلفات عن برتراند رسل وخاصة التى تحلل آراءه وتناقشها وتنقل انطباعات هذا الرجل الذى عاش حقبة طويلة ، والتقى بكثير من العظماء وناقش أعمالهم ، وأبدى فيها آراء قيمة ناضجة .

ونرجو أن تكون قد أسهمنا فى نقل صورة حية لحياة هذا الرجل العظيم ، وألمنا بأفكاره الماما أقرب الى أن يكون كاملا .

والله ولى التوفيق

محمد عطا

برتراند راسل الإنسان

- ١ - سيرته
- ٢ - محاكمته في أمريكا
- ٣ - دعوته الى السلام
- ٤ - عظماء في حياته
- ٥ - خاتمة

الفصل الأول

سيرته

نشأته :

ولد برتراند راسل عام ١٨٧٢ من أسرة ارسقراطية عريقة لها شأن عظيم فى الحياة العامة الانجليزية ، وتمتد جلدورها لا الى عدة أجيال فحسب ، بل الى عدة قرون خلت . مات والداه وهو فى سن مبكرة لدرجة أن ذاكرته لا تعيها . وبعد وفاة والديه تولى جده وجدته أمر تربيته . أما جده الذى رباه فهو اللورد جون رسل (١٧٩٢ - ١٨٧٨) وهو رجل قام بدور هام على مسرح السياسة الانجليزية فى القرن التاسع عشر ، فقد تولى رئاسة الوزارة فى عهد الملكة فيكتوريا مرتين ، وعاصر نابليون وهو لا يزال امبراطورا .

كان اللورد جون رسل من المشايخين ذوى النفوذ لسياسة حزب « الويجز » المتحرر Whig وهو الحزب الذى تطور فيما بعد واتخذ لنفسه اسما جديدا مازال معروفا به حتى الوقت الحاضر وهو الحزب « الليبرالى » البريطانى (أو حزب الاحرار) . كان هذا الحزب يتأهض سياسة حزب . التوريز Tories المعروف لنا فى الوقت الراهن باسم حزب « المحافظين » البريطانى . والحزبان على طرفى نقيض أولهما يدعو الى التحرر والآخر يدعو الى المحافظة ، كان موقف « الويجز » ، و « التوريز » من الثورة الفرنسية نموذجيا حيا قويا على مدى الخلاف بين سياستى الحزبين المتصارعين ، فبينما كان حزب « التوريز » يناصب الثورة الفرنسية العداء ، كان حزب « الويجز » على قدر من العطف على مبادئ الثورة الفرنسية واهدافها . ومما يدلنا على هذا العطف أن جون رسل وهو من زعماء « الويجز » البارزين - قام بزيارة نابليون بعد اندحاره فى منفاه فى جزيرة البا . ومن الثابت أن اللورد جون رسل من الساسة الانجليز الذين أسهموا بنصيب وافر فى ارساء قواعد الديمقراطية فى بريطانيا فهو المسئول عن تقديم قانون الاصلاح المشهور فى عام ١٨٣٢ الذى سارت بسببه انجلترا بخطا حثيثة على الطريق نحو الهدف الديمقراطى .

تشبع برتراند الغلام بروح التحرر

شب برتراند راسل وترعرع كما رأينا في أحضان عائلة غير محافظة من الناحية السياسية وإن كانت شديدة المحافظة في مجالات الفضيلة والأخلاق . وكانت أسرته الأرستقراطية تورث أفرادها إلى جانب القاب النبلاء جيلا بعد جيل ، الأفكار المتحررة التي دأبت العائلة على تبنيها منذ القرن السابع عشر . ولا شك أن هذا الجو قد أثر على برتراند رسل من الناحية السياسية منذ يفاعته . وهو يقول في هذا الصدد :

» لقد تعلمت نوعا من الإيمان النظري بالمدى الجمهورى الذى لا يرى غضاضة فى السماح لملك يتولى الحكم طالما أنه يدرك أنه موظف فى خدمة الشعب يتعرض للطرد اذا ثبت عدم صلاحيته ، وقد كان من عادة جدى الذى لم يكن الاحترام للأشخاص أن يشرح وجهة النظر هذه الى الملكة فيكتوريا التى لم تتحمس لها ، (١) .

وهكذا نتبين فى جلاء أن برتراند رسل قد نشأ فى بيئة لا تقيم وزنا للملوك أو لنظام الحكم الملكى . والخط السياسى الليبرالى الذى دأبت عائلة رسل على تأييده يتلخص فى الوقوف فى وجه الملوك والنيل منهم كلما سنحت فرصة لذلك ، ومؤازرتهم فى حالة واحدة وهى التى يتعرضون فيها لهجوم رجال الدين ، مما يدلنا على أن كراهية عائلة رسل للملوك لم تفقها سوى كراهيتها لرجال الدين الذين يمارسون سلطانا زمنيا .

طفولة متقشفة متمزعة غير سعيدة :

من الخطأ كل الخطأ أن نظن أن عائلة رسل كانت تناصب مبادئ الدين الكراهية والعداء فقد كان عداؤها منصبا على رجال الدين الذين يتدخلون فى مجريات الحياة العامة ويمارسون سلطانا سياسيا . ولعل من الغرابة بمكان أن نعترف أن عائلة رسل كانت على الرغم من كل ما سبق ذكره ، شديدة التزم فى مجال الدين والأخلاق والفضيلة ، لم تكن طفولة برتراند راسل سعيدة بأى حال من الأحوال فقد تضافرت ظروف شتى على أشاعة الشقاء فى قلبه . كان فى طفولته يقاسى من الوحدة ويعانى من الخجل ، فهو لا يعرف اقارنا له يقضى وقته معهم ، ويصرفه فى اللعب كما يفعل سائر الصبية فى مثل عمره ، فأخوه الوحيد يكبره بسبعة أعوام وهو فارق كبير فى السن . وباختصار كانت طفولته جافة متجهم لا يشيع فيها مرح الصبية وبهجتهم . وهكذا كتب على برتراند راسل منذ نعومة أظفاره أن يعيش فى وحدة وعزلة .

(١) صور من الذاكرة Portraits from Memory ص ٧

ولكن هذه الوحدة النفسية ، والعزلة الاجتماعية لم تكن توجع الصبى وتؤله قدر ما كان أسلوب العائلة العقيم في التربية ينفث التعاسة في نفسه ، فهو أسلوب في التربية كما يصوره برتراند راسل في كتاباته - شديد الشطف والغلظة وأشبه ما يكون بنظام أسبرطه التربوى في أيام الاغريق الذى عرف عبر التاريخ بقسوته البادية وفظاظته الظاهرة وحرصه على النظام أكثر من حرصه على أى شىء آخر .

كانت عائلة راسل على الرغم من ارسطراطيتها ومكانتها الاجتماعية المرموقة تنهج أسلوب التقشف في معيشتها اليومية كما كانت تولى الورع المتزمت ، والتقوى المتشددة اهتمامها البالغ ، فهى تفرض على نفسها نظاما حازما صارما لا تحيد عنه قيد أنملة . فعلى الرغم من كثرة عدد الخدم الذين يعملون في خدمة بيت راسل (كان عددهم ثمانية) ، الا أن الطعام الذى كان يقدم فيه الى أهله يتصف بالبساطة الشديدة التى تبلغ مبلغ الشطف . فقد كانت العائلة حريصة على أن يعيش أبنائها فى جو من الخشونة التى تصنع منهم رجالا يعتد بهم ، فلا يخرجون الى العالم منعمين مدللين مترفين . ويضرب برتراند راسل مثلا على هذا التقشف فيقول انه لو كان فى البيت صنفان من الحلوى ، قل « توتة » تفاح ، و « أرز باللبن » ، كانت العائلة تكتفى بتقديم « الارز باللبن » لفيلسوف المستقبل وتعمد الى حرمانه من الطعام الاكثر لذة على اعتبار أن أحدهما كاف .

كانت العائلة تصر على أن يستحم برتراند الصبى بالماء البارد على مدار السنة وتفرض عليه التمرين اليومي على البيانو لمدة نصف ساعة فى كل صباح ابتداء من الساعة السابعة والنصف فى حجرة باردة دون اشعال نار المدفأة ثم تصر على أن يشترك مع العائلة فى الصلاة فى موعد لا يتغير قط هو الثامنة من كل صباح .

اضف الى ذلك أن الأسرة كانت تنظر الى الخمر والتدخين على انهما شر مستطير ، وان كانت تضطر الى تقديم قليل من الخمر الى الوافدين عليها من الضيوف على أنه من مستلزمات الضيافة التى لا غنى عنها ، والشئ الذى لا ينبغى أن يغيب عن ادراكنا هو أن هذا النوع من التربية الاسبرطية كان سائدا بين قطاع كبير من غلاة المتدينين فى المجتمع .

كان من الطبيعى الا يسعد برتراند الصبى فى هذا الجو الخائق المتزمت كما كان من الطبيعى أن يتمرد عليه . هذا هو السر فى أن برتراند راسل أوقف فيما بعد جانبا من كتاباته الفلسفية لمحاربة الكثير من أسس المجتمع الفيكتورى الفكرية ، وأسلوب حياته . كانت كراهية راسل لأسلوب تربيته الاولى عنيفة جارفة ، فهو يدينه ويدمغه بلا لين أو هوادة . انظر اليه وهو يتحدث عن هذا النظام التربوى فيقول : « كانت الفضيلة هى الشئ الوحيد الذى تعلق الاهمية عليه »

«الفضيلة على حساب العقل والصحة والسعادة وكل مصلحة دنيوية» . (١) والذي لا شك فيه أن ثورته كفيلسوف على التقاليد وقواعد الاخلاق السائدة في المجتمع الفيكتوري مرتبطة ارتباطا وثيقا بظروف نشأته الاولى بل هي في واقع الامر رد فعل طبيعي لها . ولكن ثورته على اخلاقيات المجتمع الفيكتوري المتزمت لم تتجاوز بحال من الاحوال حدود الفكر الى مجالات العمل . والدليل على ذلك ما كتبه برتراند راسل في عام ١٩٣٢ في مقال يحمل عنوانا (في مدح الكسل) : « لقد نشأت شأني في ذلك شأن معظم الجيل الذي أنتمى اليه على المثل القائل بأن « اليد البطالة نجسة » ، ولما كنت طفلا يتحلى بأسلمى الفضائل ، كنت أصدق كل ما كان يقال لي . واكتسبت ضميرا ما زال يدفعني الى العمل الشاق حتى اللحظة الراهنة . واكن على الرغم من أن ضميري لا يزال يسيطر على «أفعالي» إلا أن « آرائي » قد اجتاحتها ثورة » (٢) .

تمرد راسل بفكره على البيئة التي شب في أحضانها ودمغها بحكمه القاسي عليها بأنها بيئة مريضة تشجع نوعا مريضا من الاخلاق الى الحد الذي يصل فيه هذا التشجيع الى اصابة الذكاء بالشلل .

الطريق الى السعادة :

ظهر خلاف برتراند راسل مع عائلته في سن مبكرة حول دراسة الفلسفة فقد كانت العائلة غير راضية عن هذا الاتجاه فيه . وعملت الاسرة كل مافي وسعها لكي تثنيه عن دراستها ، فكانت تدأب على السخرية من دراسة الفلسفة والخط من شأنها وتقول له دائما في نهكم . What is mind ? No matter. What is matter? Never mind. (٣)

وضاق الفلام ذرعا بهذا التهكم المر على ميوله واستعداداته الفطري . ويات يتشوق الى اليوم الذي يتحرر فيه من حجيم البيت الخانق . ورغم أن راسل لم يلتحق بأية مدرسة خاصة أو عامة (فقد توفر على تدريسه في حدائته بعض المربين الخاصين المرموقين) ، إلا أنه لم يكن يكره وحشته وعزلته عن صحبة أقرانه من الصبية بقدر ما كان يكره جو البيت الذي اشاع في قلبه الابتئاس . وعندما حان اليوم الذي التحق فيه راسل بكلية ترينيتي في جامعة كامبردج (في الثامنة عشرة

(١) صور من الذاكرة ومقالات أخرى ص ٩

Portraits from Memory and Other Essays

(٢) في مدح الكسل لبرتراند راسل ص ١ In Praise of Idleness

(٣) هذه النكتة تعتمد أساسا على التورية التي تنطوي عليها كلمتا

matter و mind الانجليزيتان فكلمة mind تحمل معنى «العقل» و

never mind تعني « لا نهتم » أما matter فتعني المادة ، و No matter

لا يهم .

من عمره) ، غمرته سعادة عارمة ، واستبدت به نشوة جارفة فقد أسكره الجو الجامعي وأنعش روحه منذ اليوم الأول . ولا غرو في ذلك ؛ ففي الجامعة كان فكره يستطيع الانطلاق والتعبير عما شاء من آراء ومعتقدات دون أن يحملق فيه أحد على أنه مختل في قواه العقلية ، أو ينظر إليه على أنه مجرم أقيم كما كان أفراد عائلته يفعلون . ولم يجد راسل أدنى مشقة في أن يآلف جو الجامعة الذي تلاعبت روحه معه بسرعة فائقة . واستطاع في أول فصل دراسي له في كامبردج أن يعقد صداقات وطيدة لم تنفصم عراها مدى الحياة .

وبعد أن تخرج برتراند راسل من الجامعة بتفوق في الرياضة جاءت مشكلة العمل الذي يقوم بممارسته ، أرادت له العائلة أن يشتغل بالسياسة لأن الاشتغال بها كان العمل الذي توارثته العائلة دون انقطاع منذ القرن السادس عشر . واعتبرت العائلة أن في الخروج على تقاليدها خيانة للامانة التي وضعتها في عنق سليلها . وبذلت الأسرة من ألوان الضغط على راسل الكثير ، ولوحت له في أغراء أنه سيجد الطريق إلى السياسة مهيدا ، ومفروشا بالورود ، وبالفعل عرض عليه اللورد دفرين Dufferin وظيفة بالسفارة الانجليزية في باريس كما عرض عليه جون مورلي John Morley الوزير لأيرلندا وظيفة أخرى . وكاد برتراند راسل أن يلين أمام الضغط والترغيب ويقبل العمل بالسلك السياسي (الذي التحق به بالفعل لفترة وجيزة لاتتجاوز بضعة شهور) . ولكن أغراء الفلسفة كان قويا جارفا فلم يستطع مقاومته ، رغم ما كان يتضمنه هذا الإغراء من أغصاب للعائلة . وفي عام ١٨٩٥ عين راسل زميلا بجامعة كامبردج لتدريس الرياضة بها .

رسل يبيع كتب الرياضة ويتجه شطر الفلسفة :

بمجرد أن تخرج برتراند راسل من الجامعة غمره شعور بالاشمئزاز من الأسلوب المتبع في امتحانات الرياضة فيها لدرجة أنه اقتنع بأن علم الرياضة لا يعدو أن يكون ضربا من الإحاجي والألفاظ يتطلب التفوق فيه مهارة في التملص والمراوغة . وأقسم رسل بينه وبين نفسه ألا يفتح كتابا في الرياضة بعد ذلك . وقام يبيع كل كتب الرياضيات التي في حوزته ، وبدأ يتجه باهتماماته شطر الفلسفة فقد أحس أن دراسة الرياضة قد خذلت أحلام يفاعته .

كان الأمل يداعب برتراند راسل في يفاعته في أن تصل به الرياضة إلى التدليل القاطع على الأمور وإذا بأسلوب الامتحانات الجامعية يخيّب أمله ، وبدله على أنها تلخص في مجرد المهارة والحلق في التخلص من المآزق عن طريق التحايل والمراوغة . أن السبب الذي حدها إلى دراسة الرياضة في صباه هو اللذة التي كان يشعر بها في البرهنة على الأشياء.

وجهه الذى يجرى فى عروقه للاستدلال العقلى . وكانت ملكة الندبل هذه متأصلة فيه منذ صباه . فعندما كان فى الحادية عشرة من عمره توجه الى اخيه الذى يكبره بسبع سنوات ليتلقى على يديه أول درس فى الرياضة . كانت هندسة أقليدس هى المتبعة حينذاك . وبدأ أخوه الأكبر بالتعريفات وسرعان ما استوعبها عقله . ولما جاء دور البديهيات أفهمه أخوه أنه يتعين عليه أن يقبلها على أنها مسلمات لا تقبل الجدل ولا تخضع للبرهنة والاثبات ، فاستاء راسل الصبى وأظهر نوعا من الغضب وقال مخاطبا أخاه : « ولكن لماذا ينبغي على أن أعترف بهذه الأشياء إذا لم يكن من المستطاع اثباتها ؟ » فأجابه أخوه : « إذا لم تعترف بها فلن يمكننا الاستمرار فى الدرس » . ولم يحمل الصبى على الإذعان سوى حرصه على أن يعرف « بقية الحكاية » على حد تعبيره ، وخشيته من أن يمتنع أخوه عن الاستمرار فى الشرح . وهكذا اضطر راسل رغم شكه وحيرته الى قبول البديهيات على أنها مسلمات لا تقبل الإثبات أو البرهان .

ومما يدلنا على ناضل الرغبة فى إيجاد أسانيد للبرهنة على الأشياء فى تكوين برتراند رسل العقلى ، أكثر من رغبته فى أى شئ آخر ، أنه لم يقضب أو يدركه الاستياء عندما قال له صديقه البروفيسور ج . ه . هاردي ، أستاذ الرياضة النظرية ، ذات يوم أنه لو توفر له الدليل على أن صديقه الحميم برتراند سيموت فى غضون خمس دقائق لما تردد فى الترحيب بموته للتدليل على صحة ما يذهب إليه رغم الالم الذى سيسببه لفقدان صديق عزيز . هذه الحادثة التى لم تغضب رسل مطلقا تدلنا بجلاء على أنه يقيم وزنا للمعرفة اليقينية القائمة على التدليل أكثر من اهتمامه بأى شئ آخر على سطح الأرض .

وعندما فشلت طرق تدريس الرياضة وأساليب امتحانها فى الجامعة فى ارضاء هذه الاستعدادات الاصيلية فيه ، اتجه برتراند رسل شطر الفلسفة يبنى منها ما كان يرجوه من دراسة الرياضة . ويقول رسل أن السبب الذى يدعو الانسان الى دراسة الفلسفة يتخذ اشكالا عديدة . ومن أهم الاسباب التى تدفع المرء الى هذه الدراسة رغبته فى فهم العالم . لقد كان هذا الدافع قويا فى الماضى عندما كان العلم والفلسفة يجتمعان فى صعيد واحد ، كانت رغبة الانسان فى فهم العالم قوية وذلك قبل أن ينسلخ العلم عن الفلسفة ويصبح له كيان مستقل قائم بذاته . ويرى الفيلسوف أن هناك سببا آخر يدعو الى دراسة الفلسفة يتلخص فى الشك فى الحواس وفى المعرفة القائمة عليها . فعندما بدأ الشك يساور الاغريق فى حقيقة وجود الآلهة على جبل الاولب التحا بعضهم الى الفلسفة يحدوهم الامل فى إيجاد ما يعوضهم عنها عن المعتقدات التقليدية التى لم يعودوا يؤمنون بها . ويقول رسل

ان رغبه في التوصل الى معرفة يقينية تقيم سياجا يحميه من الشك كانت حافرا هاما دفعه الى دراسة الفلسفة . ففي صدر شبابه وهو بين الخامسة عشرة والتامنة عشرة من عمره عكف على دراسة المسلمات العقائدية الاساسية التي يتضمنها الدين بقصد الوصول الى جوهريات دينية يمكنه الاستمسك بها . ولكن عقله ابى ان يقتنع بأى منها . ودعاه فشله في استخلاص جوهريات دينية يمكنه الايمان بها الى الالتجاء الى الفلسفة عله يجد فيها معتقدات تحل محل المعتقدات الدينية التقليدية التي نبذها . ولكن الفلسفة فشلت بدورها في تعويضه عما افتقده من هذه المعتقدات . وبمعنى آخر فشل رسل في ان يجد في الفلسفة ما يرضى نزعاته الدينية . والان بعد ان اكتملت فلسفة رسل التي تعتمد على العقل وتمجد التشكك فيما لا يستطيع عقل الانسان اثباته أو البرهنة عليه ، نجد انها لا تزعم لنفسها القدرة على اراحة الانسان مثلما تريحه المعتقدات التقليدية . ولكن العزاء الوحيد الذي تقدمه فلسفة رسل للانسان هو حرصها الشديد على الامانة الفكرية مهما كلفت من ثمن والايمان بأن التشكك والقلق الفكرى الذى يجيء في اعقابه كنتيجة لانعدام المعرفة اليقينية ينطويان على شجاعة أدبية وفضيلة أخلاقية .

مر برتراند راسل بمراحل تطور فكرية واضحة حددت اتجاهاته الفلسفية فقد بدأ باعجابه بفلسفة الفيلسوف الالماني « كانت » ولكنه هجرها عندما أسقطته كما يقول في وهدة من الطلاسم اليتافيزيقية المحيرة . وعاف عقله الشديد الحرص على الوضوح ، ما انحدر اليه بسبب فلسفة « كانت » من غموض . وليس هناك أدل على كراهيته للغموض مما كتبه عن نفسه قائلا « اننى أحب التحديد ، وأحب الخطوط الواضحة وأمقت الغموض المستغرق » .

وبعد أن تخلص رسل من اثر « كانت » عليه ، وقع تحت تأثير الفلسفة الهيجيلية فقد ارشده صديقه الحميم ماك تاجارت McTaggart رائد الهيجيلية في انجلترا الى هذه الفلسفة . واجتذبت الهيجيلية برتراند رسل اليها لما عرفه عنها من أنها فلسفة ترضى الرغبة في الايمان عن طريق الاستمسك بجوهريات الدين في اطار عقلى شديد التعقيد ، لا تحده الحدود التقليدية الضيقة ، فهذه الفلسفة تنتهى الى « المطلق » وهو اسم آخر لله ، كما أنها تصور الكون على أنه وحدة واحدة لا سبيل الى الفصل بين أجزائها . وبما زاد في تشبث رسل بالهيجيلية في وقت من الاوقات هو ارتياحه للاعتقاد بأن المادة وهم وبأنه لا وجود للزمان والمكان وأنه ليس هناك لغير العقل وجود . ويقول رسل أن أثر هيجل عليه استمر لمدى طويل حتى بدأ يقرأ هيجل في نصوصه الاصلية فروعه

وخيب ظنه أن يصطدم بحزمه من الافكار المضطربة المهوشة التى بدت له مجرد تلاعب بالالفاظ .

وبعد ان هجر برتراند راسل فلسفة هيكل ، استأثر به لبعض الوقت نوع من التصوف الرياضى استمدته من أفلاطون الذى استمدته بدوره من فيثاغورث . وبعد أن أجرى رسل على الافلاطونية بعض التغييرات التى خففتها ولطفت من حدتها ، آمن رسل كما تؤمن الافلاطونية بأن هناك عالما من المثل كاملا سرمديا لا يعرف التغير ، عالما تعطينا الحواس عنه صورة ناقصة شائثة تنأى عن الكمال، وبأن الرياضة التى تعالج عالم الافكار تتصف بالكمال والدقة اللذين يخلو منهما عالم الحس المتغير الذى نخبره فى حياتنا اليومية . ولكن الامر انتهى ببرتراند رسل الى نبذ هذا التصوف الرياضى ومنذ ذلك الحين ورسل لا يجد رأيا دينيا فى أى مذهب فلسفى يستطيع أن يقتنع به .

برتراند راسل الخنزير الشيوعى : بدا برتراند رسل حياته الفكرية مؤمنا بالاستعمار ، مؤيدا له وكان فى تحيزه للاستعمار متأثرا بسيدينى ويب Sidney Webb . ولكن نوعا مما يطلق عليه المسيحيون « الاهتداء الى الدين الحق » انتابه فى عام ١٩٠١ على وجه التحديد تخلى الفيلسوف على اثره من كل نزعاته الاستعمارية ونبذها نبذا تاما .

وفى عام ١٩١٨ ، عكف برتراند راسل على كتابة « الطرق الى الحرية » ابان الحرب العالمية الاولى وفرغ من كتابته قبل أن تزج به السلطات الانجليزية فى السجن لدعوته الى السلام وانهاء الحرب بأى ثمن . وفى هذا الكتاب دافع رسل عن الاشتراكية ، واعتبر أن اشتراكية الدولة كما وضعها ماركس ، والفوضوية كما بشر بها باكونين وكروبوتكين ومذهب الاشتراكية النقابية المتطرفة (Syndicalism) كما كان سائدا فى فرنسا ، تكون جميعا دعائم الحرية وترسى أسس المجتمع الجديد الذى كان رسل يرغب فى انشائه على انقاض العالم القديم الذى قوضت أركانه الحرب العالمية الاولى – ولاشك أن رسل تعمد اختيار اسم « الطرق الى الحرية » لكتابه بدلا من « الطريق الى الحرية » حتى يبين أن هذه المذاهب جميعا – وان كانت قاصرة اذا أخذنا كلا منها على حدة – تساهم فى وضع أسس العالم الامثل الذى تطمح الانسانية فى اقامته . وفى هذا الكتاب نجد رسل متحمسا للشيوعية الفوضوية بعض الشيء . والسبب فى عطفه على الفوضوية هو حرصه الشديد على استكمال حرية الفرد واستقلاله وتخوفه من البيروقراطية فى اشتراكية الدولة عند ماركس .

ولكن فى عام ١٩٢٠ زار برتراند راسل الاتحاد السوفييتى لمدة قصيرة ، وتعمد أن يختلط بأكبر قطاع ممكن من الناس حتى يتعرف على

التجربة الشيوعية الوليدة . وقابل رسل لينين ومكث معه ساعه . واغتم الفيلسوف لما رآه من مظاهر القسوة . والبطش في روسيا الشيوعية ، ومن غلظة قلب زعيمها لينين . وتركت هذه الزيارة القصيرة في نفسه اسوا الاثر . لم يرق لينين في عين برتراند راسل رغم اعترافه الصريح بتفاني الزعيم الروسي الذي لا يرقى اليه الشك في المبدأ الشيوعي وفي رغبته في الاصلاح . فقد كان لينين يروى لزاثره مستضحكا كيف انه كان قبل اندلاع الثورة الحمراء يحرض الفلاحين على الاجهاز على اصحاب الاراضى والاقطاعيين وشنتهم على اقرب شجرة . كان لينين يروى هذه الحادثة مقهقها ، كما كان يظهر لذة في استرجاع هذه الذكريات . ويبدى تسليه وتشفيا ينمسان عن ظوه من العواطف الانسانية ويجعلان بدن الانسان يقشعر . ساء رسل ان يجد ان الكراهية هي القوة الدافعة للينين ورفاقه من الشيوعيين ، ولم ير في زعيم الشيوعية السوفيتية الا تعصبا اعمى . ويقول الفيلسوف في هذا المجال انه استيقن من ان الشيوعيين الذين استولوا على الحكم في روسيا عام ١٩١٧ تحركهم عاطفة واحدة جارفة مستبدة هي الحققد فظهر اشتمزازهم من أن يكون الحققد أساسا لاي اصلاح اجتماعي . كان لينين ورفاقه قبل الثورة يصبون حقدهم على أعدائهم من الاقطاعيين والبورجوازيين وعلى كل ما يعترض سبيل الثورة الشيوعية ، فلمسا يحقق للحاقدين الاستيلاء على زمام الحكم ، وتصفية بواعث حقدهم القديم ، كان طبيعيا أن يبحثوا عن أشياء أخرى جديدة يصبون عليها حقدهم الاسود الذي أصبح جزءا لا يتجزأ من تركيب جهازهم النفسى .

وهكذا خرج برتراند راسل من روسيا الشيوعية ساخطا كل السخط وشرع يهاجم الشيوعية السوفيتية . واستاء اليساريون في الغرب من هجومه على التجربة الشيوعية الجديدة التي يعطفون عليها ، ونظروا اليه شذرا واعتبروه أجرا للبورجوازية . واستمر اليساريون القريبون يناصبونه العداء الى وقت قريب حتى استيقنوا أن الاتحاد السوفيتي لا يقيم المجتمع الذي يحلمون باقامته . أما اليمينيون فلم يلتفتوا الى تغير موقفه من الشيوعية وظلوا يذكرون عطفه القديم عليها . وأطلقوا عليه اسم « الخنزير الشيوعي » . وبذلك أصبح رسل موضعا للاتهام والكراهية من كل جانب ولم ينقذه من هذا الموقف العصيب سوى زيارة الى الصين امتدت نحو عام استمتع بها الفيلسوف استمتاعا عظيما فقد راقت له حضارة الصين الثالثة واستهوتته النزعة العقلية التي تسود هذه الحضارة . ويدين برتراند رسل بالفضل الى هذه الزيارة التي علمته أن ينظر الى الحاضر الانساني في ضوء الاحفاب التاريخية السحيقة . وساعده هذا الاحساس بالابعد الزمنية الشاسعة أن يتخلص من النظرة الضيقة التي تحبس الانسان في سجن الحاضر بصفائنه واحقاد الصغيرة وآماله المحدودة .

والعجيب في الامر ان هذه التهم القديمة استمررت لاصقة به الى وقت قريب جدا .

الفيلسوف العظيم لا يتلائم مع أحداث القرن العشرين :
يجد برتراند راسل صعوبة كبيرة في أن يتلائم مع أحداث القرن العشرين فقد شب وبرعرع في ظل مجتمع له مقدساته وتقاليد الراسخة كالطود الاشم ولكنه يرى الآن بعين الحسرة والآلم جل هذه المقدسات الشامخة والتقاليد السامقة تتهافت ثم تزول . أما البقية الباقية منها فتهدده الاخطار من كل جانب .

ان التغير الذي طرأ على العالم في القرن الراهن يهول رسل ويفزعهم وهو ينظر الى انكماش الحريات في العالم وتقلصها نظرة ملؤها الحزن والاسى . وهذا طبيعي للغاية فقد نشأ الفيلسوف في أحضان المجتمع الفيكتوري وثار في وجه الكثير من قيمه . ولكنه تشرب بروحه الديموقراطية المتحررة كما وضع أسسها الفيلسوف الانجليزى جون لوك J. Locke في القرن الثامن عشر وكما درج القرن التاسع عشر على فهمها . وقد يجوز لنا ان نصف رسل بالارستقراطي المتمود فهو ولاشك يسعى الى تحطيم الكثير من قواعد الفكر المألوفة في المجتمع الفيكتوري التي لا تزال مألوفة في العصر الحديث ، ولكن الذي لاشك فيه كذلك أن التقليد الليبرالى الديموقراطى المتأصل في المجتمع الفيكتوري يلقى منه كل احترام وينال كل اكرام ، وخاصة بعد أن شاهد رسل العالم المحموم ينزلق في حربين عالميتين مجنونتين في مدى قصر . وبعد أن رأى بعينه قلاع الحرية تتهاوى أمام لومة اللاعقل وأمام معاول الاستبداد والديكتاتورية . وقد ذكر رسل في حديث تليفزيونى أجراه ودرويات Woodrow Wyatt معلق التليفزيون البريطانى المشهور عام ١٩٥٩ ونشر عام ١٩٦٠ ضمن احاديث أخرى في كتاب تحت عنوان « راسل يفصح عما في خلده (١) »

Russell Speaks his Mind انه كليبر الى عجز لا يستطيع مطلقا أن يستسيغ الهاوية التي تردت فيها الحريات في القرن العشرين - ويقول رسل في أكثر من موضع ان الفرد لم يكن في حاجة الى حمايته من سيطرة الدولة في أى وقت في الاوقات مثل حاجته اليها في العصر الحديث .

يقول برتراند رسل ان التنبؤات التي ذكرها جورج اورويل George Orwell في قصته المعروفة ١٩٨٤ تتحقق بالتدريج ، وان العالم من بكرة ابيه يتوغل في الظلام الذي صور ه اوريل في هذه

(١) نشر هذا الكتاب في مجموعة كتب ثقافية

القصة . واذا كان العالم لا يدرك حقيقة هذا الموقف فذلك لان الحريات تنكمش بالتدريج ، ولان الناس في الغرب قد استخف بهم الرضاء عن النفس فظنوا واهمين انهم بمان من هذا المصير وتوهموا ان نكلام الديكتاتورية الدامس كما رسمه اورويل . المخيم على الاتحاد السوفيتي لن يصل اليهم بحال من الاحوال دون ان يدركوا ان نفس الظلمة تزحف اليهم وتشملهم بالتدريج . ويقول رسل انه لابد للناس في الغرب ان ينتبهوا الى ان العالم قد افتقد الكثير من مظاهر الحرية التي كانت سود أوروبا في القرن التاسع عشر . فقد اختفت من الغرب حرية التنقل بدون جواز سفر وحلت فكرة الرقابة على الصحف التي لم تكن تخطر على بال احد في القرن الماضي . لقد كانت أوروبا تعيش في عزلة وفزعاً عندما تنظر الى استبداد روسيا القيصرية وجورها ، وكانت تنظر الى القيصرية الروسية واستبدادها نظرتها الى نظام بربرى غير متمدين ويقول رسل ان روسيا الشيوعية ابشع حالا من روسيا القيصرية ولكن ليس معنى ذلك ان يتجاهل الغرب الاخطار التي تهدد نظامه الديمقراطي وحيثه التي يفخر بها . ويدلل رسل على الاختفاء التدريجي لكثير من مظاهر الحرية التي كانت معروفة في القرن التاسع عشر بأن وزارة الداخلية الانجليزية تلجأ الى تطهير أجهزة الدولة ممن تشبه في ولائهم وان هذا التطهير يتم سرا حتى لا تثار حوله الضجة ويحاط الراى العام به علماً ، كما انها لا تسمح بالهجرة على النحو الذى كانت تسمح به في الماضي . اصف الى ذلك انها تقصر الهجرة على حالات قليلة يكون الباعث اليها أسباب سياسية . ويعيب رسل على الحكومة البريطانية مظهرها خطيراً من مظاهر انعدام الديمقراطية يتجلى فى تنحية بعض أساتذة الجامعات من مناصبهم - بزعم عدم الكفاءة احياناً - ممن تشبه فى ولائهم السياسى دون أن يتوفر لديها الدليل على صحة هذه الشبهات . ويرى رسل أن العدل يقتضى اقامة جهاز بوليسى منفصل عن جهاز البوليس العادى ، يستهدف اثبات براءة المتهم والعمل على احباط مساعى جهاز البوليس الاصلى ، فليس من العدل أن نسخر الدولة مواردها لاثبات جرم المتهم دون أن تعمل شيئاً أو تحرك ساكناً لاثبات براءته . فان أراد المتهم أن يدفع عن نفسه التهم الملتصقة به اضطر أن يفعل ذلك على نفقته الخاصة ، وفى كثير من الاحوال يعجز المتهم عن اثبات براءته لما يتطلبه هذا الاثبات من نفقات طائلة أثقل من أن يتحملها كاهله . ولعل هذا يعطينا صورة عن مدى تخوف برتراند رسل من أجهزة البوليس وتشككه منها ، وعدم قدرته فى نفس الوقت على التأقلم مع ظروف القرن المضطرب الذى يعيش فيه .

لم يكن يخطر على بال مخلوف فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ان جذور الامبراطورية البريطانية ستزعزع فى يوم من الايام ولكن أحداث

القرن العشرين زلزلت هذه الثقة الاكيدة في رسوخ الامبراطورية . ومن بين الافكار الراسخة في تربة القرن التاسع عشر التى تهاوت في القرن الحاضر ، الايمان الذى لا يتزعزع بالعلم وبامكانيات التقدم الضخمة . كان القرن التاسع عشر شديد التفاؤل يؤمن بالتقدم المنظم في العالم بأسره ، وباختفاء الثورات من مسرح الاحداث الدولية وبوقف الحرب تدريجيا حتى يسود السلام والاستقرار أرجاء الارض ، وبامتداد نظم الحكم البرلماني حتى تشمل انحاء المعمورة . لقد تشرب برتراند رسل الكثير من مظاهر هذا التفاؤل الفيكتوري الهائل ولكن الاحداث في القرن العشرين اضطرته الى التخلي عن الكثير من اسباب التفاؤل . ولعل ماكتبه عن نفسه يلقي ضوءا على طبيعة التغيرات التى أجراها القرون الراهن في نظريته الى الحياة : « لقد شببت في غمار التفاؤل الفيكتوري ، ولكن على الرغم من أن التفاؤل السهل السائد حينذاك لم يعد ممكنا ، فإن شيئا من الرجاء الذى كان ميسورا آنذاك مازال يداعبنى حتى الان » .

ان برتراند رسل يهوله ان يرى العالم الان على فوهة بركان قد يطيح به في آية لحظة . لقد فقد الفيلسوف الكثير من تفاؤل القرون التاسع عشر وهو دائب القول على أن العالم ليس بحاجة في الوقت الحاضر الى المزيد من المعرفة التكنولوجية قدر حاجته الى مزيد من الحكمة والانصات لصوت العقل والتسامح .

الفيلسوف العظيم يتأرجح بين اليأس والرجاء :

نسا برتراند رسل كما سبق أن ذكرنا في جو القرن التاسع عشر المنحدر المتفائل . وأخذ عن والديه اللذين كانا من أتباع الفيلسوف « الليبرالي » المعروف جون ستيوارت ميل أيمانه بحقوق المرأة . ولعب رسل نفسه دورا هاما في تحرير المرأة الانجليزية وحصولها على حقوقها السلبية . وعندما يستعرض الفيلسوف الكهل الان أحداث العالم الحديث يصيبه اليأس تارة ويداعبه الامل تارة أخرى . ونحن نجده يرحب بالتطورات الداخلية في إنجلترا التى يرى أنها أسنكلت حريتها وديموقراطيتها بمنح المرأة حقها الانتخابي ، كما أنه يرى أن إنجلترا قد أمكنها تحقيق نوع من الاشتراكية المعتدلة التى لا تتعارض وحريات الافراد الخاصة . والى جانب ذلك يرحب الفيلسوف بالتقدم الراهن من التسامح في مجالات الاخلاق الخاصة الذى يزيد عما كان عليه المجتمع الفيكتوري كما يرحب بارتفاع مستوى المعيشة بين الكادحين وبانخفاض نسبة الوفيات وخاصة بين الاطفال دون أن تترتب على ذلك زيادة عدد السكان زيادة مخيفة مروعة .

ولكن اليأس يتطرق الى قلبه عندما يستعرض الموقف الدولي فقد

كان يأمل في صدر شبابه ان ينجح الانسان في تصعيرة الحروب والقاء
الفاقة والعوز في ارجاء العالم كله ، وفي زيادة شعور التسامح والمودة
بين الناس وفي تهيئة اكبر قدر ممكن من الفرص لتنمية المباداة عند
الافراد على اوسع نطاق دون الحاق الاذى بالآخرين .

وامام هذا الاحساس اليائس ، يهتف به هاتف الشيطان - الذي
يبدو له انه هاتف العقل أيضا - أن يتخلى عن السياسة وي طرح مجريات
الحياة العامة . ويذكره هذا الهاتف في ألم عظيم أن مقاليد العالم الراهن
في أيدي كبار ساسته ، في أيدي دالاس و خروتشوف وماوتسي تونج
وأنها ليست بيد العاديين من أمثاله من البشر ، ان هؤلاء القادة الكبار
هم الذين يقررون مصير الانسان ، يقررون له الموت أو الحياة . ورسلا
لا يستطيع أن يفعل شيئا حيال ذلك أكثر من اصدار الكتب التي لايعنى
هؤلاء الساسة بقراءتها ، وحتى لو قرعوها لاستسخفوها . ولكن هذا
الهاتف الخبيث اليائس لا يستولى على فكره تماما ولا ينجح في أن يثنيه
عن العمل وفي تثبيط همته لان جانبا من عقله يؤمن بأن السياسة
انفسهم يتأثرون بالرأى العام في بلادهم وأن الكتب تساعد على خلق
الرأى العام وقد تترك فيه كتبه شيئا من الاثر . وعلى كل حال فرسل
يقنع نفسه بأن كتابة الكتب هواية بريئة لا ضرر منها فهي تبعده عن طريق
الزلل والضلال ، ولهذا يستمر في كتابتها رغم انه لا يعرف اذا كانت
هذه الكتب ستفيد في شيء أم لا .

الفصل الثاني

محاكمة برتراند رسل في أمريكا

(١)

في عام ١٩٤٠ خلت وظيفتان لتدريس الفلسفة بجامعة مدينة نيويورك بعد أن اعتزل الخدمة أستاذ الفلسفة ، في قسم الفلسفة بالجامعة . ورشح برتراند رسل الذي كان يحاضر في الفلسفة في جامعة كاليفورنيا حينذاك كي يشغل أحد المكانين الشاغرين . وأرسلت جامعة مدينة نيويورك دعوة الى الفيلسوف المعروف للعمل بقسم الفلسفة بها مدى عام (ابتداء من ١ فبراير سنة ١٩٤١ حتى ٣٠ يونيو ١٩٤٢) وقد قابل جميع اعضاء هيئة تدريس الفلسفة ومجلس ادارة الجامعة وشتى المسؤولين فيها دعوة الفيلسوف الكبير بالاستحسان والترحيب البالغين . واعتبر الجميع ان في تعيين برتراند رسل كسبا عظيما للجامعة لم تنعم بمثله طوال حياتها الاكاديمية . وقبل رسل الدعوة فأرسل له رئيس مجلس التعليم الاعلى خطابا يعبر فيه عن شكره وامتنانه لقبوله للدعوة ويؤكد فيه النصر الكبير الذي ينطوى عليه قبول الفيلسوف العظيم للتدريس في جامعة مدينة نيويورك .

(٢)

وعندما اذيع نبا تعيين رسل هاجت الدنيا وماجت ، وتعمالت الاصوات بالقدح والهجوم عليه فقد ارسل الاسقف ماننج Manning خطابا دوريا نشرته كافة صحف نيويورك قال فيه : « ما عسى أن يقال عن الكليات والجامعات التي تعين لشبابنا ، مدرسا مسئولوا للفلسفة ، عرف بتهجمه على الدين والاخلاق ودفاعه عن الزنا بالذات ! » ولم تمض ايام حتى عاد هذا الاسقف الى شن هجوم مقذع على رسل قال فيه : « هناك قوم ممن اضطربت عقولهم وأخلاقهم لا يجدون ضيرا في تعيين رجل يقول في كتاباته المنشورة « ليس هناك مقياس للاخلاق خارج الرغبات الانسانية » .

وكان خطاب الاسقف ماننج بمثابة الطلقة التي اعلنت بدء المعركة التي خاضها معارضو رسل للتشهير به وللضغط والتخويف . فقد شنت عليه الصحافة الامريكية اقذع هجوم واتهمته بأتهنع التهم وأغلظت له الكثير من القول . قالت « التابلت » The Tablet : « أن تعيين رسل جاء كصدمة قاسية ومهينة لكل أهل نيويورك ، ولسائر الامريكان

الحقيقيين ، وطالبت الجريدة في مقال افتتاحي لها بالغاء هذا التعيين ووصفت رسل بأنه استاذ الوثنية وفيلسوف الفوضوية الاخلاقية في بريطانيا العظمى . . الرجل الذي أصبح دفاعه عن الزنا كريها حتى انه يقال ان احد اصدقائه اعتدى عليه بالضرب . أما مجلة اليسوعيين الاسبوعية « أمريكا » فأشارت الى رسل بقولها انه « مدافع عن الانحلال الجنسى ضامر ، ومطلق ومتهتك . . . وهو الان يلقن الطلبة في جامعة كاليفورنيا سموم الاباحية والحياة المتهتكة المنحلة في أمور الجنس والحب الدنس وزواج المتعة . هذا الانسان المفسد الذى لم يكن أميناً مع «عقله» و « ضميره » والذي يربأ كل انجليزى شريف بنفسه ان يقيم صلة به » .

وشبه بعضهم الفيلسوف الانجليزى بالحية الرقطاء التى تكمن في الحشائش وقد أ برق أحد معارضيه خطاباً لعمدة مدينة نيويورك لاجارديا La Guardia يقول فيه : « لو كان برتراند رسل أميناً حتى مع نفسه لاعلن كما اعلن روسو من قبل : « اننى لا أستطيع ان ارى كتاباً من كتبى دون ان يقشعر بدنى . فأنا أفسد بدلاً من ان اعلم وانفث السموم بدلاً من ان اغذى . ولكن المواطف الهوجاء تعمينى ، ولست على الرغم من احاديثى المهذبة الا وغداً » . وطلب مرسل البرقية من العمدة التدخل لحماية الشباب من النفوذ السيئ «لهذا الرجل العبقري القرد ، رسول الشيطان الى الانسان » . وعندما ازداد ضغط الرأى العام الهائج على الاوساط الجامعية لاختيارها غير الموفق ، اضطر احد أعضاء مجلس التعليم الاعلى الذى سبق أن صوت لتعيين رسل بالاجماع بأن يصرح بأسفه على هذا التعيين . وبرر قبوله لتعيين رسل في البدء بأنه لم يكن على علم من قبل بأراء رسل الفاضحة .

ولم تسكت الصحافة عند هذا الحد بل تبادلت فوصفته احدى الصحف وهى جورنال آند امريكا Journal & American بأنه يجسد شيوعية النساء وحملهن سفاحاً وتربية الاطفال كى يصبحوا أدوات طيعة لدولة ملحدة . ولم تقف حملات التشهير عند هذا الحد فرغم أن آراء رسل في الشيوعية السوفيتية معروفة لدى الجميع الا أن أعداءه ومعارضيه كانوا يعمدون الى اقتطاف عبارات من كتب له كان قد ألفها في الماضى دون ذكر للنص أو السياق الذى وردت فيه . وكانوا يستدلون بهذه المقتطفات على انه نصير للشيوعية ، وهكذا أصبح الفيلسوف الكبير مضطاً في افواه معارضيه الذين لم يكتفوا بالتنديد بالتحلل خلقه بل اضافوا الى هذا تهمة الشيوعية .

وتقدمت هيئات وجمعيات لا حصر لها تحرص على شئون التربية والتعليم تطالب بطرد الفيلسوف الزائر كما تطالب بطرد جميع أعضاء مجلس التعليم الاعلى الذين صوتوا لتعيينه . وصال رجال الدين ورجالوا

وانبروا للهجوم على رسل في خطب حماسية ملتهبة مثيرة . وركز رجال الدين هجومهم على نقطتين : (١) ان رسل اجنبي فليس له الحق القانوني ان يقوم بالتدريس في جامعة امريكية . (٢) ان آراءه في الجنس تشكل خطرا على الاخلاق العامة وتدفع الى الجريمة .

وهانجه القس جون شولتز John Schultz في كلية اسوبس Esopus اللاهوتية قائلا : « ان شباب هذه المدينة يتعلمون (على يد رسل) ان الكذب شيء لا وجود له ، كما يتعلمون ان السطو مشروع وله مبررات . وكذلك النهب والسرقة . وهم يتعلمون كما تعلم ليوب وليبولد (١) في شيكاغو ان الجرائم الفظيعة غير الانسانية مشروعة ايضا ولها ما يبررها » . وبلاضافة الى هذا كله ، اتهم رسل بأنه يدعو الابناء لكرهية الاباء والحقدهم عليهم كما ان تعاليمه تشجع على اراقة الدماء في سبيل المتعة الجنسية .

واشترك عدد كبير من رجال السياسة في المعمة فاحتج واحد منهم (وهو قاض) على اتفاق اموال دافعى الضرائب على تعليم فلسفة في الحياة تنكر وجود الله وتتحدى الدوق والتربية كما تتعارض تماما والروح الدينية التي تميز الامة الامريكية وحكومتها وشعبها .

وقدم احد اعضاء المجلس البلدى في نيويورك اقتراحا يطلب فيه من مجلس التعليم الاعلى الغاء قرار تعيين برتراند رسل . وفاز هذا الاقتراح بأغلبية أصوات أعضاء المجلس البلدى (٥/١٦) . ولكن ستانلى ايزاكس Stanley Isaacs الجمهورى لم يكتفِ لشعو الجماهير المتهب وانبرى مدافعا عن رسل وعن مجلس التعليم الاعلى . وقد صرح احد اعضاء المجلس البلدى المعارضين لرسل في اجتماع عام انه سيطلب من المجلس الغاء معونته لعام ١٩٤١ للجامعات في مدينة نيويورك وقدرها ٧٥٠.٠٠٠ دولار اذا لم يتم طرد رسل وقال انه لو كان الامر بيده لتأكد من ايمان الجامعات بالله او لغلاق أبوابها . وتوالى الخطباء في هذا الاجتماع وسب أحدهم (واسمه شارلس ، ا كيجان Charles E. Keegan) رسل سبا قبيحا . وقال آخر انه لو كان نظام الهجرة والجوازات فى أمريكا نظاما دقيقا لما أمكن لهذا الوضع أن يطاق يقدمه أرض الولايات المتحدة .

(١) اوستقراطيان من هواة الاجرام في امريكا دبوا جريمة قتل محكمة دون سبب وكادا ان يفلتا من القصاص لبراعتهما في ارتكاب الجريمة لو لم يتركا وراءهما اثرا لم يتنبها اليه كان مفتاح القضية لرجال الامن .

(٣)

هال رجال الجامعات في أنحاء الولايات المتحدة ان يتدخل على هذا النحو اناس لا تربطهم بالحياة الاكاديمية صلة في مسألة جامعية بحثة : وتحرك حشد من العلماء والاكاديميين يدافعون عن حرية البحث والاستقصاء العلمى . وهب لنصرة رسل مديرو الجامعات وكبار الاساتذة في طول البلاد وعرضها وكتب سبعة عشر عالما ممتازا خطابا لعمدة المدينة يحتجون فيه على « الهجوم المنظم على تعيين برتراند رسل الذى طبقت شهرته الافاق » واستطرد العلماء في خطابهم قائلين انه اذا بجع هذا الهجوم على رجل الفكر والفلسفة « فلن تكون هناك كلية امريكية او جامعة بآمن من سيطرة محاكم التفتيش التى يحركها أعداء الحرية الفكرية . انها لميزة نادرة لاي طلبة في أى مكان ان يتلقوا العلم على يد رجل له عقل برتراند رسل ، ويجب على نقاده ان ينازلوه في شرف على الأرض المكتسوفة ، أرض النقاش الفكرى والتحليل العلمى وليس لهم الحق في اسكاته بمنعه من التدريس ... والمسئلة التى تعرض لنا الان أجل من أن تقبل المساومة او التهاون بالمساومة فيها تعرض كل الاساس الذى تبنى عليه حياة الجامعة الامريكية للخطر »

وتصدى صفوة العلماء والمفكرين للدفاع عن رسل وعلى رأسهم اينشتين Einstein وديوى Dewey وهويتهد . وقد ذكر انشتين في هذا الصدد « ان الارواح العظيمة هى التى تجددانما معارضة من التافهين والمعادين من الناس ، لانهم لا يستطيعون أن يفهموا أن انسانا يمكنه ألا يخضع للعقائد المتوارثة ، وأن يستخدم عقله في جراءة واقدام » .

ولم يكن الدفاع عن رسل قاصرا على رجال العلم والجامعات فقد ابرى للدفاع عنه عدد غير قليل من رجال الدين المستنيرين . والتف تسعة من الناشرين اللامعين حول قضية رسل وأصدروا بيانا بمتدحون فيه تعيين الفيلسوف الكبير ويشنون على مجلس التعليم الأعلى لتوقيفه في هذا الاختيار . وازاد الناشرون في بيانهم أنهم لا يدنون بالضرورة بأراء الكتاب والمفكرين الذين يقومون بنشر كتبهم ، ولكنهم يشجعون العقول العظيمة ويرحبون بها حتى تغلب قوى العقل والحجى على قوى البغى والجهل والظلام . وكتبت دوروثى تومسون Dorothy Thompson فى المقالات الافتتاحية لـ « ببلشرز ويكلي Publishers Weekly » ونيويورك هيرالد تريبيون New York Herald Tribune تدافع عن خلق الفيلسوف العظيم فقد ذكرت تحت عنوان « اللورد رسل غير منحل الاخلاق » : « ان أى انسان يعرف رسل يعلم أنه رجل يمتاز بأرفع مراتب الكمال الشخصى والتفوق العقلى » . وفى اجتماع عام نوه استاذ الفلسفة السابق بجامعة مدينه

نيويورك والذي جاء رسل ليحل محله بأفضاله وإبائيه اليصاء على العلم والفلسفة . وقارن رسل بسقراط وذكر أن الفاء تعيين رسل سيكون وصمة عار في جبين مدينة نيويورك تملأ كما أصبحت محاكمة سقراط وإدائته تزعج أفساد الشباب وصمة عار في جبين أئينا. ووقف إباء الطلبة وأولياء أمورهم في صف رسل فقد استحسنتم جمعية الإباء باجماع الاصوات الخطوة التي خطتها هيئة التعليم الأعلى في اختيار رسل كاستاذ للفلسفة في جامعة مدينة نيويورك .

(٤)

وفي وجه التهديد الصارخ ، والفضب العام الذي اجتاحت الرأي العام ، فقد بعض أعضاء مجلس التعليم الأعلى أعصابهم . ولكن البعض الآخر ظل مستمسكا في شجاعة واستبسال بحق المجلس في تعيين برتراند رسل دون تدخل أو ضغط أو تهديد . وفي اجتماع عقده المجلس بتاريخ ١٨ مارس أصرت أغلبية الاعضاء على موقفها السابق ، وأكدت تعيين رسل بأغلبية الاصوات (٧/١١) . وهكذا جاءت المعارضة بالفشل في اعتراضها على تعيين الفيلسوف الكبير للتدريس بجامعة مدينة نيويورك . ولكن المعارضة لم تستسلم أو تلتجى بسلاحها أمام الهزيمة فقد عمدت الى محاربة رسل في كل الجبهات ، وسعت جاهدة حتى تحول بينه وبين التدريس بجامعة هارفارد التي كانت قد دعت له للقاء سلسلة محاضرات فيها معروفة باسم محاضرات « وليم جيمس William James » وذلك في فصل الخريف الدراسي من عام ١٩٤٠ وفي يوم ٢٤ مارس كتب « توماس دورجان Thomas Dorgan الموكل التشريعي Legislative Agent لمدينة بوسطن الى جيمس ب . كونانت James B. Conant مدير جامعة هارفارد حينذاك يقول « أنت تعلم أن رسل يدافع عن رواج الصداقة والتجربة وحل الروابط التي تقيد السلوك الاخلاقي ، ورجائي أن تلاحظ ان استئجار مثل هذا الرجل ينطوي على اهانة لكل مواطن أمريكي في ماساشوسيت » .

وفي نفس الوقت تقدم المعارضون لرسل الى الهيئة التشريعية بولاية نيويورك يطلبون منها التدخل لدى مجلس التعليم الأعلى لإلغاء تعيينه . وبالفعل تقدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ (سيناتور) الى هذه الهيئة التشريعية باقتراح يتضمن اعتبار « ان المدافع عن اخلاق زربية الحيوانات شخص لا يصلح لان يتفعل وظيفة هامة في نظام التعليم في ولايتنا على حساب دافعي الضرائب » . ووافقت اللجنة التشريعية بالاجماع على هذا الاقتراح دون ان ينهض صوت واحد للاعتراض عليه .

وكان هذا القرار بمثابة خطوة مهدية لاتخاذ اجراءات اشد عنفا واكثر ضراوة ضد برتراند رسل ، وتاديب الاحد عشر عضوا في مجلس التعليم الاعلى الذين سولت لهم انفسهم المضي في الفى والضللال ، والاصرار على تعيين رسل غير عابئين بتيار المعارضة الجارف . وقام السيناتور جون . ف . دنيجان John F. Dunigan بدمغ فلسفته ووصفها بوصفها بأنها « تنتهك الدين والدولة والعلاقات العائلية » . وجار دنيجان بالشكوى من النظريات الملحدة السائدة بين ولاية الامور في مجالات التعليم في مدينة نيويورك . واضاف هذا السيناتور ان اصرار مجلس التعليم الاعلى على تعيين رسل رغم كل مظاهر معارضة الراى العام الشديدة امر يدعو الى القلق . وطالب دنيجان باجراء بحريات شاملة في نظم التعليم بمدينة نيويورك . واقرت الهيئة التشريعية مقترحات السيناتور دنيجان بعد ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليها .

لم تكن هذه الاجراءات في حقيقة امرها تعدو ان تكون مناقشات مبدئية تمهد للحرب الشعواء التي شنها اعداؤه عليه ، فقد كانت اهم هذه المناورات على الاطلاق تلك التي قامت بها سيدة من بروكلين اسمها « جين كاي Jean Kay » التي ظهرت فجاء على مسرح الاحداث في مدينة نيويورك دون مقدمات اذ لم يسبق لها ان ابدت اى اهتمام بالشئون العامة . ورفعت هذه السيدة بوصفها دافعة ضرائب قضية في محكمة نيويورك العليا تهدف الى الفاء تعيين برتراند رسل في منصب التدريس بكلية المدينة . واستندت هذه السيدة في عريضة الدعوى الى شيئين : (١) أن رسل اجنبي فليس له تمة حق في العمل بالولايات المتحدة . (٢) انه مدافع عن الفسق والانحلال الجنسي واعلنت جين كاي امام القضاء عن قلقها البالغ عما قد يصيب ابنتها جلوريا Gloria لو انها تلقت العلم على يد هذا الرجل الفاسد . وفيما بعد ، اضاف محامو هذه السيدة اعتراضين آخرين على تعيين رسل ، اولهما انه لم يجتز امتحان مسابقة كما تقضى بذلك اللوائح . وثانيهما أن السياسة العامة في الولايات المتحدة تتناقى مع الحاق اى انسان يعتنق الالحاد بوظيفة التدريس .

وكلت مسز كاي محاميا ينوب عنها لدى المحكمة اسمه جوزيف جولدشتين Joseph Goldstein وفي عريضة دعواه وصف هذا المحامي كتب برتراند رسل بأنها « فاسقة وداعرة وشهوانية ونكاحية ومصابة بلوثة الشيق ومشهية للجنس ، لا تقيم حرمة لشيء ، محدودة الافق ، غير صادقة وخالية من اى نسيج اخلاقى » . ولم يقف الامر عند هذا الحد فقد ذكر هذا المحامي أن رسل قام بتنظيم مستعمرة لامرأة في انجلترا ، وإن اطفاله كانوا يقومون بعرض انفسهم عراة ، كما

ان رسل بعسه اشترك مع زوجته في مرض نفسيهما عاريتين علنا وعلى مرأى من الناس . و اضاف المحامى جولدشتين أن هذا الرجل المسن الذى يناهز السبعين من عمره يبدي اهتماما بالشعر الماجن الخليع . ولم يكتف جولدشتين بهذا القدر من التشنيع القاذع فقد ادعى أن رسل يفض الطرف عن الشذوذ الجنسى ، بل الادعى من هذا أنه يقره ويوافق عليه . واخيرا أصدر هذا المحامى حكمه الدامغ على مكانة برتراند رسل بين الفلاسفة فقال :

« انه ليس فيلسوفا بالمعنى المقبول لهذه الكلمة . وهو ليس محبا للحكمة ولا باحثا عن الحكمة ، كما أنه ليس بالمستكشف لذلك العلم الكونى الذى يستهدف تفسير سائر ظواهر الكون عن طريق الوقوف على أسبابها الاولى . وهو فى نظر الشاهد المحلف المائل امام المحكمة ، بل وفى نظر الكثرة من الناس الآخرين لا يخرج عن كونه سفسطائيا يمارس السفسطة . وهو يقوم عن طريق الحيل المسكرة والالاعيب واساليب الخداع بل مجرد المراوغة . بمجادلات زائفة لا تنهض على استدلال عقلى متزن . وهو يستخلص نتائج ، لا تستند الى أسلوب حق فى استنباطها من قضايا سليمة . ان كل المبادئ التى يزعمها والتي يطلق عليها اسم فلسفة ان هى الا خزعات وقضايا مسفة رخيصة مهلهلة تهدف الى تضليل الناس » .

والغريب فى الامر ان الدبلى نيوز نشرت خبرا مفاده ان رافعة الدعوى « جين كاي » قد امتنعت - وكذلك زوجها ومحاميهما - عن الانضاء بأية معلومات من شأنها ان تلقى ضوءا عمن يتحمل نفقات هذه القضية .

وفى بدء حملة التشهير لاذ الفيلسوف الكبير بالصمت . واثّر الا يدفع عن نفسه الاتهامات واكتفى بالتعقيب على هجوم الاسقف ماننج المقدم بقوله : « اننى لا أرغب فى الرد على هجوم الاسقف ماننج . ان أى انسان يعقد العزم فى شبابه على الا يفكر والا يفوه بغير الحق على الرغم من كل مظاهر العداء التى تقابله ، وعلى الرغم من التحريف واساءة التصوير ، يتوقع مثل هذه الهجمات وسرعان ما يعلم أن أفضل سبيل يسلكه هو تجاهلها » . وقال رسل انه شاء الصمت الذى يكاد يكون مطبقا ، وأن عدم الاشتراك فى النقاش المحتدم حول تعيينه بجامعة المدينة لانه كان يعتقد انه ليس هناك ثمة علاقة بين ارائه فى هذا الامر وبين مسألة تعيينه المختلف عليها . ولكنه اضاف انه يرى نفسه مضطرا الى الخروج عن هذا الصمت امام وابل الاتهامات الباطلة التى يكيلها له معارضوه فى ساحة القضاء . قال برتراند رسل فى هذا الصدد « ولكن عندما تداع بيانات باطلة عن افعالى تنصف بالبهتان الصارخ فى قاعة

المحكمة . اشعر انه يتعين على ان اكذبها . اننى لم انظم مستعمرة للعرأة في انجلترا على الاطلاق ، كما انه لم يحدث اننى وزوجتى قد اشتركتا سويا في عرض أنفسنا عراة علنا امام الناس . واننى لم ابد مطلقا اهتماما بالشعر الخليع . هذه الاتهامات اكاذيب مقصودة يجب ان يعرف الذين يوجهونها أنها لا تستند الى أى اساس في الواقع وسأكون مسرورا اذا اتبحت لى العرصة ان اقسم اليمين على بطلانها » .

ونظرت هذه القضية في محكمة نيويورك العليا امام القاضى ماك جيهان McGeehan وادلى نيكولاس بوشى Nicholas Bucca بشهادته في المحكمة كممثل لمجلس التعليم الاعلى وعبثا حاولت المحكمة أن تزج به في نقاش حول آراء رسل الشريرة الفاسدة أو عدم كفاءته فقد أصر بوشى أن يقصر شهادته على الجانب القانونى من القضية التي تتناولها المحكمة ويتلخص في اعتبار تعيين رسل في جامعة امريكية عملا غير قانونى يوصفه اجنبيا عن البلاد . وأنكر بوشى عدم قانونية التعيين . واكد انه نص في القانون غير معمول به ، كما طلب من هيئة المحكمة رفض الدعوى المقدمة اليها . لكن القاضى ماك جيهان أجابه بطريقة تندر بالشر انه اذا وجد في كتب رسل ما يؤيد صحة الاتهامات الموجهة اليه فلن يقف الامر عند هذا الحد . وهذه الكتب التي اشار اليها القاضى هي التي اوردها المحامى جولد شتين في عريضة الدعوى التي اقامها برتراند رسل وهي : « التعليم والحياة الطبية » ، و « الزواج والاخلاق » ، و « التعليم والعالم الحديث » ، وما اعتقده ،

(٥)

وبعد انقضاء يومين . في ٣٠ مارس على وجه التحديد ، نطق القاضى ماك جيهان بالحكم . قال القاضى انه اقام حكمه على « أنماط ومبادئ » هي في واقع الامر قوانين الطبيعة ... الطبيعة التي خلقها الله » وتضمن حكم القاضى الغاء تعيين برتراند رسل في وظيفة مدرس للفلسفة بجامعة مدينة نيويورك . ووصف القاضى هذا التعيين ، كما وصفه الخطباء من رجال الدين من قبل بأنه اهانة لاهل مدينة نيويورك . و اضاف القاضى أن مجلس التعليم الاعلى بتعيينه لبرتراند رسل انما بنشء في واقع الحال كرسيا في الجامعة لقلّة الحياء ، كما وصف تصرف هذا المجلس بأنه تعسفى ، طائش ، قائم على النزوات ، وأنه انتهاك صريح للامن العام والصحة العامة والاخلاق العامة . وايد القاضى حق المدعية في افامة دعواها وفي حقها في استصدار امر من المحكمة بالغاء تعيين المدعو برتراند رسل . وقد اعترف القاضى - كما ورد في جريدة الصندى ميور بأن حكمه كان في عنفه وتفجيره بمثابة الديناميت

واشارت « جريدة الجمهورية الجديدة » الى السرعة البالغة التي اصدر بها القاضى حكمه ، ووصفتها بأنها سرعة تفوق سرعة البشر . وابدى الفيلسوف الامريكى المعروف « جون ديوى » شكه فى ان يكون القاضى قد قرا بالفعل الكتب التى اوصى محامى الادعاء « جوزيف جولدشتين » المحكمة بقراءتها . كان من الواضح انه يتعذر على أى انسان ان يفرغ من قراءة هذه الكتب ودراستها دراسة وافية فى ظرف يومين ، فما بالك بكتابة تقرير مستفيض عنها كالذى كتبه القاضى فى هذه المدة الوجيزة . وكان من الواضح ايضا ان القاضى ماك جيهان لا يراعى أبسط قواعد العدالة او الذوق ، فقد اصدر حكمه دون ان يكلف خاطره عناء الرجوع الى برتراند رسل نفسه حتى يتأكد من ان الصواب لا يجانبه عند تفسيره لآرائه ، وحتى يتأكد ان فهمه لا يغير حقيقة قصد الفيلسوف . أضف الى ذلك أنه لم يحاول أن يستيقن من أن رسل نفسه لا يزال يعتقد ذات الآراء التى سبق له ان عبر عنها فى كتب له مضى على كتابتها ما بين ثمانية اعوام وخمسة عشر عاما .

لقد بلغ تجاوز القاضى لحدود الذوق العام الدرجة التى اغفل معها شهادة نيكولاس بوتشى ، ممثل مجلس التعليم الأعلى الذى اصدر قراره بتعيين برتراند رسل . وزعم القاضى ان بوتشى قد ابلىح المحكمة انه لن يدلى بشهادة امامها . واقسم بوتشى على بطلان هذا الزعم ، وانكره انكارا تاما واضاف انه فهم من القاضى ان المحكمة لن تسمح له بالادلة بوجهة نظر مجلس التعليم الأعلى الا اذا انكر انه طلب من المحكمة رفض النظر فى هذه القضية .

لقد تخلل محاكمة برتراند رسل فى نيويورك الكثير من المحالعات القانونية الصارخة ولكن هذه المخالفات نهون وتتضاءل امام سيل انهجوم الشديد الذى تضمنه حكم المحكمة ضده . ان نص هذا الحكم ان دل على شيء فانما يدل على ما يمكن ان ينحدر اليه القضاء فى دولة تزدهو بحريتها وديموقراطيتها ، وخاصة عندما يؤازره الساسة ذوو النفوذ والسلطان ويشدون من عزمه . لقد استطاع القضاء الامريكى فى قضية رسل ان يمسح الحقائق ويشوهها بطريقة سافرة للغاية . وكان القاضى ماك جيهان يتلمس السبل لادانته بكافة الطرق ومن بينها استهزاء عمدا ببعض الفقرات من كتاباته دون ذكر السياق الذى وردت فيه ، وعرضها بشكل شائه مبتور من شأنه ان يصل الى نتائج وآراء تتنافض تماما وما يرمى اليه الفيلسوف الكبير .

استند القاضى فى اصدار حكمه الذى يقضى بالغاء تعيين برتراند رسل فى جامعة مدينة نيويورك الى ثلاثة اسباب : اولها ان رسل اجنبى . - انها ان الجامعة لم تعد له امتحان مسابقة كما نقضى

اللائحة بذلك ، تألثها ان آراءه في الاخلاق هدامة وتشكل خطرا داهما على الاخلاق العامة .

ولنبحث الآن ما ورد في حكم القاضي بالتفصيل بالنسبة لهذه النقاط الثلاث :

بالنسبة للسبب الاول ذكر القاضي ان قانون التعليم الامريكى ينص على انه لا يحق لاي فرد ان يزاوِل مهنة التدريس في مدارس الدولة العامة اذا كان لا يحمل الجنسية الامريكية ولكن القانون أباح للأجنبي حق الاشتغال حتى في هذه المدارس اذا كان يعتزم انتجس بالجنسية الامريكية . لقد جانب القاضي الصواب في عدة أمور فيما يتعلق بهذا السبب (اولا) لان القانون ينص صراحة على الاشتغال بمدارس الدولة ولا يشير الى الجامعات فلو طبق هذا النص بالفعل لكان معناه الاستغناء عن خدمة جل الاساتذة الذين يشتغلون بالتدريس في جامعة مدينة نيويورك لانهم أجنبى ، ولانهم لم يتخرجوا في مدارس تابعة للدولة تم لانهم لم يحصلوا على تصريح من السلطات التعليمية قبل التحاقهم بوظائفهم . (ثانيا) لانه ليس من حق القاضي ان يتكهن ، كما فعل ، بان برتراند رسل لا يعتزم طلب الجنسية الامريكية ، فامامه - كما ذكر ممثل مجلس التعليم الاعلى - عام بأكمله يستطيع خلاله ان يطلب من ادارة الهجرة والجوازات ان تمنحه الجنسية الامريكية . (ثالثا) لان القاضي كان دائب القول ان رسل شخصية فاسدة . وهذا في الواقع امر لا يحدده احد غير ادارة الهجرة والجوازات . ولو كان اتهام القاضي لبرتراند رسل صحيحا لكانت ادارة الهجرة والجوازات قد طلست منه مفادرة البلاد ، وهذا ما لم يحدث قبل التعيين او بعده .

اما السبب الثانى في الغاء تعيين رسل ففجواه ان رسل لم يجتزل كما تقتضى اللوائح والقوانين التعليمية امتحان مسابقة يؤهله لشغل الوظيفة الشاغرة . ولاشك ان هذا السبب مجرد ذريعة لا اكثر ولا اقل ، فالقانون ينص صراحة على تخويل مجلس التعليم الاعلى سلطة التعيين اذا لم يكن فى الامكان من الناحية العملية عقد امتحان مسابقة للمرشحين للتدريس فى الجامعة . فالأمر اذن أولا وآخره موكول الى مجلس التعليم الاعلى يقرر ما يشاء على ضوء الظروف والحالات الخاصة بكل مرشح . وفى هذا الصدد ، قال القاضي فى حكمه انه يرفض زعم مجلس التعليم الاعلى بأن عقد امتحان مسابقة لرسل غير ممكن من الناحية العملية ، ووصف هذا الزعم بأنه طائش وتعمسفى وأنه يتعارض تعارضا صارخا مع دستور ولاية نيويورك . وعلق القاضي على ترشيح واختيار جامعة مدينة نيويورك لبرتراند رسل بالذات بقوله انه لو كان رسل هو الانسان الوحيد فى العالم الذى يستطيع تدريس الفلسفة والرياضة لجاز تعيينه دون امتحان مسابقة ، ولكن يصعب على المرء ان يصدق

انه لا يوجد امريكى واحد فى سائر الولايات المتحدة على درجة من الكفاءة تؤهله لشغل الوظيفة الخالية عن جدارة واستحقاق . والذي لا شك فيه ان مطالبة القاضى بعقد امتحان مسابقة لرسل اجراء ينطوى على التعسف ، وهو محاولة واضحة من جانب القاضى لايجاد تعلقة قانونية يعرقل بها تعيين الفيلسوف الكبير . فلو كان امتحان المسابقة ضروره قانونية لكان معنى هذا ، التخلص من عدد كبير من اساتذة الجامعة فى مدينة نيويورك لعدم قانونية تعيينهم ، ولاستحقت الجهات التعليمية المسئولة توقيع العقاب عليها لمخالفتها الصريحة للوائح والقوانين لسماحتها لمثل هذا العدد الكبير بمباشرة التدريس فى الجامعة دون استيفاء مسوغات التعيين القانونية . ولكن الواقع الذى تجرى عليه الجامعات يفاير ما أصدره القاضى ماك جيهان من أحكام اذ انه من الثابت انه يحق لمجلس التعليم الاعلى تعيين من يثق فى قدرتهم على أداء وظيفتهم التعليمية دون الرجوع لاحد وبفض النظر عن كونهم اجانب ، ومع عدم التقيد بالنص الخاص بامتحان المسابقة اذا كانت الظروف لا تسمح بعقده . والكل يعرف ان المعاهد التعليمية العليا فى أمريكا كثيرا ما تستعين بخدمة الاجانب بشكل ملحوظ . ولعل حادثة تعيين الفيلسوف الكاثوليكي المعروف جاك مارتين Jacques Maritain وهى ليست بالبعيدة العهد من تعيين رسل - تدل بجلاء ان تعيين الاجانب فى جامعات أمريكا ليس بدعا ، فقد تم تعيين هذا الفيلسوف المشهور على الرغم من انه اجنبى وعلى الرغم من انه لم يتقدم بطلب الى ادارة الهجرة والجوازات كى تمنحه الجنسية الامريكية . ومع هذا كله لم يفكر احد فى عقد امتحان مسابقة له ، كما ان احدا من دافعى الضرائب الأمريكان لم يفكر فى رفع قضية ضده لوقف تعيينه . وهذا يدل بشكل قاطع ان المسألة فى حالة رسل لم تكن تعدو ان تكون محاولة من جانب القضاء يعضده الساسة ذوو النفوذ لايجاد الدرائع والمبررات القانونية الشكيلة لابطال تعيينه .

اما السبب الثالث والآخر - وهو اجل الاسباب واطرها جميع - الذى استند اليه القاضى فى الغاء التعيين فيتلخص فى كون برتراند رسل شخصية منحلة فاسدة . وقد اعترف القاضى نفسه ان هذا السبب الآخر هو اقوى سبب حملته على الغاء تعيين رسل على الاطلاق . وفى الحكم الذى أصدره ماك جيهان ، هاجم أخلاق رسل الخاصة واستعمل فى هجومه لغة عنيفة قاسية فوصمه بأقذر النعوت . واختف من لفته تماما لهجة الاعتذار التى كانت واضحة عند سرده للسببين الاولين ، فرسل فى نظر القاضى لا يخرج عن كونه رسولا للفسق والانحلال مهما حاول مجلس التعليم الاعلى تبرئته او الدفاع عنه . واكد ماك جيهان فى ماد شخصية رسل واعتبره بؤرة للعريضة والانحلال ، ورفض ان يقل -

ما اسماء ذريعة مجلس التعليم الاعلى القائلة بأن شخصية رسل وآرائه أمور لا دخل لها في الوظيفة التي سيشغلها في الجامعة اذ أنه سيقوم بتدريس الرياضة . لم يجد هذا القول مع القاضي فتىلا فقد انبرى للهجوم على أخلاق برتراند رسل والنيل منه ، واستولى على القاضي غضب مقدس وأعلن أن التدريس مهنة تقتضى توفر الخلق القويم في أمر القائم بها ، كما أعلن أن التدريس لا يقتصر على امداد الطلبة بالمعلومات فالمدرس قبل كل شيء وفوق كل شيء يحتذى وقوة تضىء لغيره السبيل . وهذه الصفات الحميدة لا تتوفر في برتراند رسل بأي حال من الأحوال .

ويجب ان نذكر في هذا الصدد ، انصافا للقاضي ، أنه لم يشأ أن يتعرض لهجوم برتراند رسل على الدين . وكانت هذه هي الناحية الوحيدة التي أظهر فيها ماك جيهان سمحة في معاملة رسل . وقصر القاضي هجومه على تأكيد فساد شخصيته من ناحية وفساد آرائه الأخلاقية من ناحية أخرى . ومن الغريب أن القاضي امتنع عن سرد أى من الأسباب التي دعتة الى شن حملته الشعواء على فساده الشخصى وكان في نظر ماك جيهان ان مبادئ رسل غير الأخلاقية أشد خطرا على الأخلاق العامة من فساده الشخصى . ولكى يثبت صحة رأيه التجأ القاضي الى كنبه يقتطف منها بعض الفقرات التي نروى ظمأه الى الانتقام دون التعرض للسياق التي وردت فيه وقال ان كتب رسل مليئة بالمبادئ الداعرة وعنف من أن يذكر القذارة التي تستشرى فيها بالتفصيل .

ان محاكمة رسل تذكر الانسان بمحاكمة سقراط في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد . ففي سن السبعين وقف سقراط وقفته المهيبة أمام جلاديه الذين لم يتورعوا عن كيل أبشس التهم له ، ومقادها (١) أن سقراط ينكر الآلهة القومية (٢) أنه يدعو للإيمان بآلهة جدد من صنعه (٣) أنه يفسد الشباب بتعاليمه المنافية للأخلاق . وقد أثبت لنا الحق خطئ هذه الاتهامات فسقراط في أذهاننا مثل أعلى للفضيلة والإيمان بالله .

واذا كانت سمحة القاضي ماك جيهان مع رسل قد جعلته لا يتبرأ الى الاتجاهات اللا دينية في تفكيره ، أو أن يستغل ماعرف عنه من الحاد ، فانه تعمد أن يؤكد ضده التهمة الثالثة التي حوكم سقراط بمقتضاها بشكل مقرر للنفس وهي أن رسل منحل الخلق ويشكل خطرا على الأخلاق العامة . وكما قابل سقراط سلفه العظيم محاكمته برابطة جأش منقطعة النظير ، فقد وقف رسل ثابت الجنان ، كالطود الأشم ، يجابه التهم الزائفة التي كملت له زورا وبهتانا دون أن تهتز شعرة واحدة من رأسه ودون أن يعرف الخوف الى قلبه سبيلا . وهكذا وقف رسل مرفوع الهامة

أمام الديماغوجية التي حاولت أن تظهره بمظهره الفاسق المتهتك ، وأثبت
سبيل النبلاء أن فرائضه لا ترتعد أمام قوى البغي والظلام .

ولكن الأصوات الحرة لم تسكت على هذا الهجوم الشائن فقد كتب
جون ديوى عالم التربية المعروف مقالا فى « الأمة » معلقا على القذارة التي
يقول القاضى أنها تلوث كتابات رسل « أن الناس – اذا كان هناك مثل
هؤلاء الأشخاص – الذين يقرأون كتابات مستر رسل بحثا عن القذارة
سيمنون بخيبة أمل » . وأضاف ديوى أن الطريقة التي عومل بها رسل
والاتهامات البشعة التي كملت له تجعل المرء يعتقد أنه لو كان بيد القارئ
بالأمر السلطان الكافي لما توانوا عن اضطهاد المناقشات الحرة الناقدة فيما
يتعلق بالعقائد والعادات التي يريدون فرضها على الناس قسرا . وكتب
البعض معلقا على لغة القاضى التي تحدث فيها عن القذارة وكبرى قلة الحياء
بقوله ان هذه الألفاظ لو استعملت خارج قاعة المحكمة لكانت كفيلة باتهام
قائلها بالتشهير والقذف .

ويبدو أن القاضى كان شاعرا بأن ماجاء فى حكمه من وقائع لا يكفي
لتبرير تدخله فى تعيين برتراند رسل فهو أمر تقرره الهيئات العلمية
وحدها . لم يكن يكفي القاضى أن يثبت أن آراءه منحلة فاسقة حتى يتوفر
لديه المبرر لممارسة الضغط على هذه الهيئات التي خولها التشريع الحرية
المطلقة فى اختيار من يشاء من أساتذة الجامعات . ولكنه أشار الى حق
السلطات القضائية فى الاعتراض على هذا الاختيار اذا هى رأت أنه ينطوى
على انتهاك قانون العقوبات وتدنيس الاخلاق والفضائل العامة والا اعتبر
هذا اساءة لاستعمال الحقوق من جانب السلطات التعليمية المسئولة .
وذكر القاضى أن من حق دافعى الضرائب أن يتأكدوا من أن أساتذة الجامعة
المختارين لا يعبثون بمقدسات المجتمع وقيمه الخلقية ومن واجب الهيئات
القضائية أن ترعى هذا الحق وتولييه اهتمامها .

وعندما ساق القاضى قانون العقوبات وسرد نصوصه بالتفصيل ،
كان من الواضح أنه يهدف الى اقامة علاقة فى أذهان الناس الذين لم يطلعوا
على كتب رسل بين فلسفته وبين التحريض على ارتكاب الموبقات وجرائم
الجنس كخطف العذارى واغتصابهن والزنا . واستفاض القاضى فى
اعتراضه على ما أكدته مجلس التعليم الأعلى من أن برتراند رسل سينكرس
وقته لتدريس الرياضة فى الجامعة فليس هناك مبرر اذن للتحذير . ورد
بأن وجود شخصية رسل فى أى مجال تعليمي ينطوى على خطر داهم وشر
مستطير . فلو كان رسل انسانا عاديا لما كان هناك ما يدعو للتحذير
والحيطة والفرع . ولكن رسل انسان ذكى موهوب . وحتى لو اقتصر
على تدريس الرياضة فسيكون أثره الشخصى كبيرا وسيقع الشباب الفريز
المفتون فى شباك شخصيته اللامعة القوية الساحرة ، وسيسعى الشباب
لمعرفة كافة ما يتصل به ، وسيعمل على محاكاته .



الفيلسوف المعاصر برتراند راسل

لقد كان القاضي يتدرع لالغاء تعيين برتراند رسل بان شبيب الجامعة وخاصة من هم دون الثامنة عشرة ، سيتأثرون حتما بأرائه الهدامة ، وبأنهم سينحرفون عن الطريق القويم ، ويرتكبون سائر الجرائم والموبقات الجنسية. ولو كلف القاضي خاطره واطلع على التقارير المكتوبة عن رسل عندما مارس التدريس في إنجلترا والصين والولايات المتحدة لما تورط في هذا الشطط ، ولأدرك ان كل المعاهد العلمية التي علم فيها تحمل له ارفع آيات الاكبار والاعجاب والتقدير . ولكن القاضي شاء ان يغفل هذه التقارير رغم انها كانت تحت تصرفه في أى وقت .

وفي الوقت الذي كان يتعرض فيه الفيلسوف العظيم لحملات التنكيل والتشهير ، أبرق لفيث من مديري الجامعات التي سبق له ان اشتغل فيها يؤيدون تعيينه ويكيلون له الثناء والمديح على ما قام به من خدمات تعليمية جليلة . وتطوعت مارجورى نيكلسون Margorie Nicolson عميدة كلية سميث باصدار بيان ذكرت فيه انها حضرت سلسلة من المحاضرات التي القاها رسل في المجلس البريطاني للدراسات الفلسفية يتعرض فيها الفيلسوف مطلقا لأرائه الخاصة في الزواج والطلاق والايمان والالحاد . فقد كان كلامه قاصرا على تدريس الفلسفة الصرفة . وأضافت مارجورى انه لم يكن ليتسنى لها ان تعرف شيئا خلال هذه المحاضرات عن آراء رسل الخاصة لو لم تتعرض لها الصحافة بالمبالغة والتحويل .

- ٦ -

عندما اصدر القاضي ماك جيهان حكمه ضد برتراند رسل منى المشايخون له بخيبة أمل شديدة ، ولكن القبضة الجارفة عمت معارضيه . وكان أخشى ما يخشاه اصدقاء الفيلسوف العظيم ان يحجم مجلس التعليم الاعلى بضغط من الساسة ذوى النفوذ عن استئناف هذه القضية امام محاكم أعلى . واثبتت الاحداث ان هذا التخوف كان ينهض على أساس من الواقع . ولكن اصدقاء حرية الفكر لم يسكتوا عن اضطهاد الفيلسوف السافر المشين وهبوا يلودون عنه فأجتمع في مدينة شيكاغو المجلس القومى للجمعية الأمريكية لاساتذة الجامعة . وأجمع اعضاء المجلس عن بكرة أبيهم على اصدار قرار يستحثون فيه لاجارديا La Guardia عمدة مدينة نيويورك ، ومجلس التعليم الاعلى لحاربة الحكم الذى اصدره القاضي ماك جيهان ضد برتراند رسل . وتوالى تأييد رسل من مختلف الهيئات العلمية ، ومن بينها الجمعية الأمريكية للباحثين العلماء ، وجمعية التعليم العام ، وتشكلت لجنة خاصة بتنت الدفاع عن قضية حرية البحث العلمى . واطلقت هذه اللجنة على نفسها اسم « لجنة برتراند رسل للدفاع عن الحرية الاكاديمية » تحت رئاسة بعض كبار اساتذة الجامعات . واشترك في حملة الدفاع عن الفيلسوف

المضطهد لفيف من ائمة العلماء والمفكرين في كل انحاء امريكا . وارسلت جمعية الحرية الثقافية برقية الى لاجارديا عمدة المدينة ورد فيها أن القاضي أظهر رسل بمظهر مشين . وأضافت اللجنة أن هذا الاتهام الصارخ لا أساس له من الصحة اذ أنه من السهل جدا اثبات خطأ هذا الزعم عن طريق الرجوع الى شهادة مديري الجامعات الأمريكية التي يشر رسل التدريس فيها .

وعقدت اللجنة الأمريكية للدفاع عن الديموقراطية والحرية الفكرية اجتماعا للاحتجاج على قرارات القاضي ماك جيهان المحقة . وتوالى في الاجتماع خطباء لهم وزنهم العلمي وأعربوا عن احتجاجهم على هذا الوضع الشائن ، وحتى في جامعة مدينة نيويورك نفسها التي كان من المقرر تعيين رسل فيها عقد اجتماع حافل كبير خطب فيه عديد من الشخصيات الجامعية البارزة ، وأعربوا عن سخطهم الشديد على المعاملة التي عومل بها رجل الفكر العظيم . وذكر احد الخطباء من رجال الفكر في الجامعة أنه ان لم تتمتع أية جامعة تنفق عليها الدولة بحرية البحث العلمي ، لانتهى الأمر بتوقف التقدم الفكرى في الحياة الأمريكية.

لقد كان القضاء الأمريكى نفسه في بعض الجهات الاخرى من الولايات المتحدة أكثر كرما وأشد رحابة صدر مع برتراند رسل . فعندما كان رسل يدرس بجامعة كاليفورنيا اعترض عليه قسيس سابق وتقدم في ٣٠ أبريل الى محكمة الاستئناف في لوس انجلوس يطلب منها التخلص من برتراند رسل وتنحيته من جامعة كاليفورنيا نظرا لمبادئ الهدامة ، ولكن المحكمة رفضت رفضا باتا أن تنظر في هذا الطلب وأهملته كلية كأن شيئا لم يكن .

- ٧ -

لسنا بحاجة الى القول بأن حكم القاضي ماك جيهان قد قوبل بالثناء العاطر من المعارضين لبرتراندرسل ، الذين مجدوا في هذا الحكم بطولته وشرفه . ووصفت جريدة اليسوعيين الأسبوعية « أمريكا » ، القاضي بقولها انه أمريكى حق ، فيه رجولة الأمريكى الصميم وقوته . وهو فوق كل هذا قاض شريف ونظيف وثقة من ثقات القانون. وذكرت الصحافة المؤيدة للقاضي أنه متدين عقلا وروحا . وأضافت أن برتراند رسل قد جانبته الصواب عندما وصف القاضي بأنه شخص جاهل للغاية، فهذا يغاير الواقع تماما . ان عقل ماك جيهان وقاد ، لامع في الدراسات الكلاسيكية فهو يقرأ هوميروس في نصه الاغريقى ، كما يستمتع بهوراس وشيشرون في أصلهما اللاتينى . وذهب تحمس رئيس جمعية المدرسين الكاثوليك للحكم الصادر ضد رسل لدرجة أنه وصفه بأنه « نصر مجيد

في تاريخ القضاء ونصر عظيم لقوى الاحتشام والاخلاق كما انه انتصار
للحرية الاكاديمية الحقبة .

وبدا من الواضح أن برتراند رسل ليس بالشخص الوحيد الذي
يستحق توقيع العقوبة عليه . فغالبية أعضاء مجلس التعليم يستحقون
انزال العقوبة بهم لانهم جميعا مشتركون في مسئولية تعيينه . واحتشدت
قوى اليمين في أمريكا وعقدت اجتماعا تعاقب فيه الخطباء . وفي هذا
الاجتماع هوجم جون ديوى ومسرز فرانكلين د. روزفلت لتبشيرهما
بمذهب التسامح السقيم . وفي نفس الاجتماع خطب رئيس اللجنة
القومية للانعاش الدينى ، وندد بأغلبية أعضاء مجلس التعليم الاعلى
ووصفهم بأنهم منحلون وطالب بطردهم من مراكزهم واستبدالهم بأناس
آخربن ما زالوا يؤمنون بوطنهم ودينهم . ونهض تشارلس كيجان الذى
سبق له ان سب رسل والحقه في هذه المرة بالطابور الخامس الذى
ساعد النازيين على احرار انتصاراتهم واتهمه بأنه شيوعى ما في ذلك
ريب . وطالب هذا الرجل بطرد أعضاء مجلس التعليم الاعلى وتعيين
اناس افضل يخدمون مدينتهم بشرف اكثر . وفي نفس الوقت قام
اليمنيون بحملة ضخمة واسعة النطاق لتوعية الامريكان بالدلول
الحقيقى لكلمة (الحرية) ولوضع حد للمحاولات التى يقوم بها اعداء
الحرية لطعنها من الخلف .

- ٨ -

كان موقف جريدة النيويورك تيمز Newyork Times من
قضية برتراند رسل موقفا لا يتفق بحال من الاحوال والسياسة العامة
المتحررة التى تفخر هذه الجريدة باتباعها . ولكن يبدو أن الجريدة
تحتفظ باستقلالها في الموضوعات المحتدمة التى لا تخضع لسلطان رجال
الدين وهيمنتهم . ففي المحنة التى اجتازها الفيلسوف تعمدت هذه
الجريدة أن تلوذ بالصمت المطبق ، وامتنعت عن الادلاء بأى تصريح ، كما
امتنعت عن التعليق على الموقف اثناء المحاكمة . ولكن بعد انقضاء ثلاثة
اسباع من محاكمة رسل ظهرت هذه الجريدة في عددها الصادر بتاريخ
٢٠ أبريل متضمنة خطابا من مستر تشيس Chase مدير
جامعة نيويورك يهاجم فيه موقف القاضى ماك جيهان ، كما يبين فيه
الخطوة التى تنطوى عليها هذه السابقة بالنسبة لحرية الفكر الامريكى
وتهديدها لاستقلال الجامعات والمعاهد العليا .

ولم تر هذه الجريدة مناصا من الاشتراك في المعركة المحتدمة حول
تعيين برتراند رسل . فكتبت مقالا افتتاحيا تقول فيه انها تنظر الى
ماحدث في هذا الموضوع بعين الاسى والالم . ولكن الجريدة انحلت على رسل
باللائمة لقبوله الوظيفة في مثل هذه الظروف . وأضافت ان الحكمة

كانت تقتضى منه الامتناع عن قبول الوظيفة المعروضة عليه اذ كان واضحا انها ستشير عليه ثائرة وحنق قطاعات ضخمة من الامريكان . صحيح ان رسل استاذ مشهود له بالكفاءة والعلم الغزير . ولكن السخط العام الذى تشيره آراؤه فى الاخلاق يدل بوضوح على قصر نظر مجلس التعليم الاعلى فى تعيين رسل اصلا ، وقصر نظر رسل نفسه لقبوله هذا التعيين فيما بعد فلو كان على قدر كاف من الحكمة لقرر الانسحاب الصامت من مسرح الأحداث .

وكتب برتراند رسل رسالة الى جريدة النيويورك تيمز نشرت فيها بتاريخ ١٦ ابريل قال فيها رسل ان انسحابه فى الواقع كان امرا تقتضيه الحكمة لو انه كان يبغى راحته الخاصة ، فقد كان هذا الانسحاب سيوفر عليه شقوته والله فى هذه التجربة المريرة . وأوضح رسل السبب الذى دفعه لعدم التنحى عن هذه الوظيفة والصمود امام تيار الراى العام الجارف ، فقال انه صمم على عدم التنحى لشعوره الدائب بان انسحابه سيكون بمثابة خذلان لقطاع من الامريكان المؤمنين بحرية الفكر والمناضلين من اجل حرية الكلمة ، فقد كان هؤلاء الناس يضعون رجاءهم فى استمراره فى المقاومة والوقوف امام تيار المعارضة العاتى . ان التراجع فى نظره كان يعنى الجبن والانانية ، والتسليم بحق المعارضة اذا كانت كبيرة فى استبعاد القلة من الناس التى لا تميل اليها من وظائف الدولة العامة بسبب آرائها أو منصرها أو جنسيتها .

وفى هذا الخطاب أشار برتراند رسل فى فخر وزهو الى الدور العظيم الذى لعبه جده جون رسل فى مطلع القرن التاسع عشر فى تأكيد حقوق الاقليات الدينية وتدعيم مصالحها فقد استطاع اللورد رسل أن يخلص انجلترا من القوانين السائدة التى تقوم على التحيز والتمييز بين الطوائف الدينية المختلفة . كان القانون الانجليزى يحرم على أى انسان الاشتغال بالوظائف العامة الا اذا كان عضوا فى كنيسة انجلترا . وكان هذا القانون بطبيعة الحال ينطوى على اضرار بمصلحة الاقليات من الطوائف الخارجة على كنيسة انجلترا .

وختم برتراند رسل خطابه بقوله ان الروح الديموقراطية الحققة تلخص فى أن تتعود الاغلبية على أن ترى عواطفها تمتلئ دون أن يكون هذا الامتحان سببا فى استيلاء سورة الفض على ما يجعل التسامح مع الأقلية التى تسمى الى شعور الاغلبية شيئا مستحيلا .

- ٩ -

من الأمور التى يدعو الى الأسف أن عمدة مدينة نيويورك «لجارديا» والقاضى ماك جيهان بدلا قصارى جهدهما للحيلولة دون استئناف هذه القضية امام محاكم اعلى . وتفتق ذهننا العمدة والقاضى عن حيلة مأكرة

لتفويت كل فرص العمل على برتراند رسل ، وإبعاده عن منصب التدريس بكافة الطرق . وكان مسلك العمدة يتصف في مظهره بالبراءة والسذاجة ولكنه كان يحمل السم الزعاف في طياته . فقد عمد العمدة الى شطب ميزانية كرسي الفلسفة الشاغر الذي كان رسل يزعم شغله . وعندما نشرت الميزانية العامة لجامعة مدينة نيويورك لاحظ بعض المراقبين اختفاء ميزانية الوظيفة التي احتدم الخلاف حولها . فما الذي حدا بالعمدة أن يفعل هذا ؟ كان العمدة يريد أن يتأكد من أن برتراند رسل لن يعود الى وظيفته بجامعة مدينة نيويورك حتى لو حكم الاستئناف في صالحه . وبلغ اضطهاد برتراند رسل مدى أبعد وأعنف فقد اشترط المسؤولون في جهات جامعية أخرى استبعاد ترشيحه عند تقرير ميزانيات الجامعات والمعاهد العلمية العليا .

وبطبيعة الحال استاء مجلس التعليم الأعلى من تدخل العمدة في شؤون المجلس الخاصة على هذا النحو السافر ، كما استاء من الحيلة التي لجأ إليها لضمان استبعاد رسل من التدريس بالجامعة . وأراد المجلس أن يستأنف القضية مهما كانت الظروف . ورفض الممثل القضائي للمجلس أن يتحرك لاستئناف القضية رغم اقتناعه بعدم قانونية حكم القاضي ماك جيهان وعدم شرعية الإجراءات التي اتخذها العمدة ، ونصح المسؤولين في المجلس بأن يقفوا بالقضية عند ذلك الحد نظرا لطبيعة القضية الحساسة التي تهيج خواطر الناس وتثير حفيظتهم . وأمام خذلان الممثل القضائي الرسمي لمجلس التعليم الأعلى اضطر المجلس الى البحث عن محامين من الخارج يتولون المرافعة في محكمة الاستئناف وتطوعت شركة أمريكية من المحامين للدفاع عن رسل مجاناً . ولكن القاضي في محكمة الاستئناف رفض أن يعترف بهذه الهيئة الدفاعية الجديدة بدلا من المندوب القضائي الرسمي الذي ينوب عن مجلس التعليم الأعلى . وبهذه الخطوة بات واضحا أن المؤامرة المحكمة ضد الفيلسوف قد اجتمعت خيوطها في نسيج من الالتواء القانوني ، كما بات واضحا أن مجلس التعليم الأعلى قد أصبح عاجزا عن أن يفعل شيئا في سبيل الغاء حكم القاضي ماك جيهان الجائر .

وأراد برتراند رسل أن يستخدم محاميا خاصا للدفاع عن سمعته التي لوئت ، وشرفه الذي لطنخ في الرغام ولكن محكمة الاستئناف رفضت باعتبار أنه ليس لرسل مصلحة قانونية في هذه القضية . وأمام هذا الاجحاف وجد رسل نفسه على طريق مسدود . ومن العجب العجائب أن تعتبر المحكمة أن لجين كاي مصلحة قانونية فتسمح لها برفع قضيتها ضد رسل ثم تنكر محكمة الاستئناف حق الفيلسوف في الدفاع عن نفسه وحماية سمعته من التلويت الذي أصابها بزعم أنه ليس له مصلحة قانونية في القضية .

لقد كان اضطهاد رسل سافرا وقحا لدرجة أن فيلسوف التربية المعروف جون ديوى قال معقبا على هذه الاجراءات التعسفية : « نحن الأمريكين لا نملك الا أن يتشرح وجهنا خزيا وعارا لهذه الوصمة التي لطخت سمعة عدالتنا » .

- ١٠ -

بعد ان انتهى رسل من مدة التدريس المحددة له في جامعة كاليفورنيا شد رحاله الى جامعة هارفارد المعروفة . ولم يقم المسئولون في جامعة هارفارد وزنا لاعتراضات القادحين وذمهم ، وبتهجم الرجعية الصارخ عليه فقد أصدرت الجامعة بيانا تقول فيه انها بعد ان احاطت علما بالنقد الموجه الى تعيين برتراند رسل قد ايقنت بعد استعراض الموقف وسائر الظروف انه من مصلحة الجامعة العليا أن تؤكد قرار تعيين الفيلسوف الكبير . وفي هارفارد حاضر رسل دون أن يحدث ما يعكر الصفو . وبعد هارفارد انتقل رسل الى بنسلفانيا ليحاضر فيها سنتين متصلتين . وفي عام ١٩٤٤ عاد امام الفلاسفة المحدثين الى انجلترا حيث أنعم عليه الملك جورج بوسام الاستحقاق .

وفي عام ١٩٥٠ عاد رسل الى أمريكا للتدريس في جامعة كولومبيا واستقبله الجميع بعاصفة من الهتاف والتصفيق لن ينساها الحاضرون مدى الحياة . وقورن استقبال كولومبيا للفيلسوف باستقبال باريس لفولتير عند عودته اليها في عام ١٧٨٤ بعد غربته التي كابدها في منفاه .

وفي عام ١٩٥٠ أيضا منح اللورد رسل جائزة نوبل للاداب . ويبدو أن اللجنة السويدية التي منحته هذه الجائزة العالمية لا تحفل بالقيم الروحية والأخلاقية كما يحفل بها الدين حاكموا رسل في أمريكا.

الفصل الثالث

قصة برنارد رسل مع الحرب والسلام الملحد الذى يسمع صوت الله

يقول برنارد رسل فى معرض الحديث عن موقفه من الحرب والسلام ان حياته تنقسم بشكل واضح الى فترتين مباينتين : فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، وفترة ما بعد هذه الحرب ، كما يقول ان حرب ١٩١٤ قد جعلته ينفذ عن نفسه غبار الكثير من التحيزات والمعتقدات التى كان يدين بها ، وأن يبدأ التفكير من جديد فى عديد من المسائل الاساسية .

ومنذ عام ١٩٠٢ ورسل يلاحظ كل الشواهد الدالة على تجمع سحب الحرب وزيادة اخطارها . وكان هذا الاتجاه نحو الحرب يؤلمه ويبعث فيه اليأس والغموط . فلا غرو اذا راياه يعارض تيار الحرب بكل جوارحه . وقف رسل فى وجه الحرب العالمية الاولى لانه كان يعتبرها بمثابة نهاية عهد ، وبداية عهد يؤذن حتما بانخفاض المستوى الحضارى العام . ولم يكن رسل يعتبر أن إيجاد وسيلة لتعايش انجلترا مع ألمانيا القيصرية أمر مستحيل . ولهذا دافع رسل عن فكرة حياد انجلترا . ونحن نرى أن برنارد رسل حتى يومنا هذا لا يترشح قيد أنملة عن الاعتقاد بسلامة نظريته فى الحرب الاولى ، فهو يذكر فى هذا الصدد أن أحداث التاريخ التى تلت الحرب الاولى قد جعلته يتأكد من صحة رأيه وسلامة موقفه .

كان رسل فيلب اندلاع لهب الحرب العالمية الاولى فى كامبريدج يناقش الموقف مع كل انسان يجده فى طريقه . كان ذلك فى أثناء الايام الاخيرة للافحة الحر من شهر يوليو على وجه التحديد . واستطاع رسل أن يجمع توقعات عدد كبير من أساتذة الجامعة والزلاء فيها على بيان يدافع عن حياد انجلترا ، ونشر هذا البيان فى جريدة المانشستر جارديان . ولكن بمجرد ان اعلنت الحرب بالفعل واشتركت انجلترا فيها ، تخلى معظم الموقعين على البيان عن موقفهم المدافع عن السلام ، وشرعوا بؤيدون الحكومة الانجليزية فى كل تصرفاتها .

وفى امسية ٤ اغسطس من عام ١٩١٤ أخذ برنارد رسل يتجول فى لندن وخاصة على مقربة من ميدان الطرف الاغر ليراقب الجماهير المهتفة بالحرب المتحمسة لها . وكان هدفه من هذا التجوال هو الوقوف على حقيقة مشاعر الناس العاديين نحو الحرب وتبيان موقف السابلة منها . ويعترف رسل بأن خبراته فى هذا الصدد قد غيرت الكثير من معتقداته الحاطنة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية . وفى خلال هذه الايام

ومن ننايا تجواله في الطرقات اكتشف رسل لدهشتمه ابتهاج الناس العادين بتوقع الحرب ، ومتعتهم في نشوبها فهي نبذ الملل المحيم على حياتهم . كان رسل فيما مضى يؤمن في سذاجه كما يؤمن سائر المدافعين عن السلام - بأن الحرب شيء كرهه تفرضه الحكومات الباغية المستبدة الميكيفيلية على شعوبها غير الراضية عنوة وقسرا . ولكنه رأى بنفسه مقدار ابتهاج الرجال والنساء العادين بمقدمها . (لاحظ أن برتراند رسل يدأب على نرديد هذه الفكرة في كتاباته فهو يرى أن في طبيعة الانسان نزعة الى العدوان تجد متنفسا لها في الحروب ، كما أنه يرى في هذه النزعة عقبة تعترض طريق انشاء عالم موحد يسوده السلام . ولكن رسل لا يبدى يأسه من التغلب على هذه النزعة المدمرة ويؤمن بإمكان التسامى بهذه الطبيعة العدوانية وذلك بتوفير فرص المغامرة البناء والمخاطرة السلمية (كالاستكشاف وارتياح الفضاء مثلا) لمن يتوق اليها من الشباب) .

لم يكن من السهل على برتراند رسل أن يتخسد موقفه الداعي الى السلام وإلى انتهاء الحرب العالمية الاولى بأى نمى . فعد اعتبر الانجليز أن موقفه خسيس وينطوى على خذلان لهم كما يتضمن نصرة لمانيا القيصرية عدوتهم . ورماء بنو جلدته بالحياة وابهموه بأنه عميل المانى . ويقول رسل أن موقفه الداعي الى السلام وضعه في مركز حرج لا من ناحية العداء العام الذى واجهه ، أو انفضاض معظم الأصدقاء عنه فحسب ، بل من ناحية شعوره الوطنى الخاص . فحب انجلترا على حد قوله يكاد يكون أقوى عاطفة فيه ، ولم يكن من اليسير عليه أن يتخلى عن هذه العاطفة . لقد كان من عادة برتراند رسل أن يساوره الشك فيما يصل اليه من آراء ولا يقطع بتصديق أى منها فيشله هذا الشك عن التصرف حيناً . وهو حيناً آخر ينظر الى المواقف الحرجة المستعصية نظرة استخفاف وعدم مبالاة . . . ولكن عندما نشبت الحرب العالمية الاولى ، لم يداخله شك قط في الموقف الذى يتعين عليه اتخاذه . فقد شعر أن عليه أن يقف في وجه هذه الحرب مهما كلفه هذا من ثمن . لقد أصابته دعايات سائر الدول المشتركة في الحرب بالفتيان لما تضمنته من أكاذيب قومية سافرة كانت تسمى اساءة بالغة الى حبه للحقيقة ، كما ساء كائنسان يحب الحضارة أن يرى صرحها ينهار أمام جحافل البربرية والظلام أضسف الى ذلك أن المجازر البشرية البشعة هالته وجعلت قلبه - وهو أب يحنو على أبنائه - ينفطر على ضياع الشباب وهلاك الابرياء في أتون الحرب المتقد . ويقول رسل في هذا المجال ان شيئاً واحداً دفعه الى المقاومة والاستمرار في الجهر برأيه رغم كل مظاهر العداء ، وإلى الاحتجاج على الحرب رغم ادراكه التام بعدم جدوى مثل هذا الاحتجاج : هذا الشيء كان سيطلق عليه « صوت الله » لو كان متدينا . وألج عليه هذا الصوت المنبعث من دخيلة ضميره الحاحاً شديداً جعله يضحي بحبه لوطنه وأصدقائه كما جعله يتقبل اضطهاد الناس له في جلد وصبر وتماسك منقطع النظير . . وهذا الشعور الجارف الهاتف من الأعماق ليس بالغريب على رواد الانسانية فقد خبره سقراط كما خبرته جان دارك من قبل . ونحن نعرف جميعاً أن سقراط وجان دارك كانا شديدى التدين . ولكن الغريب في الأمر أن

يكابد مثل هذه التجربة القريبة من الصوفية ان لم تكن الصوفية بعينها
انسان ملحد كبرتراند رسل .

ـ الفيلسوف الكبير يتعرض لضرب يكاد يفضي الى الموت

كانت تجربة الحرب العالمية الأولى مريرة ، مروعة بالنسبة لبرتراند رسل لدرجة أنه أصبح لفترة من حياته يكابد رؤية مزعجة يرى فيها لندن كمدينة من الوهم لا تتصل بعالم الحقيقة في شيء . كان رسل يرى في خياله المحوم جسور لندن وهي تتقوض وتنهار وتغوص في اليم ، ثم يرى المدينة العظيمة وهي تتلاشى بأكملها من الوجود وتبدد كأنها ضباب الصباح . وأحس الفيلسوف أنه يزرع تحت كابوس مزعج ويعيش في عالم مادته من الأوهام . ولكنه آلى على نفسه أن يضع حدا لهذه الرؤية البتسة التي تشله عن العمل واجتاحه شعور عارم بضرورة الاقدام على شيء ايجابي .

ولم تدم سلبية برتراند رسل واستغراقه في كابوس الحرب المزعج طويلا . فقد بدأ يخطب في اجتماعات يعقدها المؤمنون بقضية السلام وكانت هذه الاجتماعات تمر غالبا دون أن يحدث ما يعكر صفوها ، ودون أن يتعرض المجتمعون للاعتداء أو الأذى . وفي اجتماع عقده أنصار السلام في كنيسة الأخوة في سووث جيت رود في حي من أفقر أحياء لندن على الاطلاق اندلعت أول شرارة لاضطهاد دعاة السلام فقد وزعت الصحف الوطنية منشورات في كل الحانات القريبة من مكان الاجتماع تقول ان رسل وأعوانه على اتصال بالألمان الأعداء ، وانهم يرسلون اشادات الى طائرات الاعداء حتى تتمكن من اسقاط قنابلها واصابة الهدف بدقة .

أنازت هذه الشائعات عواطف الناس على أنصار السلام فحاصر بعض الغوغاء مكان الاجتماع في الكنيسة يقودهم حفنة من رجال الشرطة . وكان كل المتظاهرين من السكاري أو انصار السكاري . ولم يبد غالبية أنصار السلام رغبة في المقاومة فقد كان بعضهم يؤمن ايمانا راسخا بعدم المقاومة أو استخدام العنف مهما كانت الظروف . أما البعض الآخر فقد أدرك العبث الذي تنطوي عليه أية محاولة للمقاومة نظرا لقلة عدده . ولم يحرك ضباط البوليس الواقفون ساكننا فقد شاعوا أن يتركوا المجتمعين في الكنيسة لمصائرهم المحتومة . وعبثا حاول ضباط البوليس اغراء السيدات بالابتعاد عن مكان الاحداث حتى لا يصيبهن سوء ، وحتى يخلو الجو أمام المتظاهرين ليفعلوا ما شاءوا بالرجال الجبناء الذين تسول لهم أنفسهم خذلان بلادهم في وقت الشدة ، فقد رفضت احدى السيدات مغادرة المكان قبل أن يغادره زملاؤها من الرجال . فضربت بذلك مثلا رائعا للشجاعة اقتدت به بقية السيدات .

وعندما غلت مراحل الفضب في عروق المتظاهرين من السكاري تقم بعضهم من دعاة السلام يحملون عوارض خشبية مليئة بالمسامير . كل هذا ورجال الامن لا يحفلون بشيء مما يقع أمام سمعهم وبصرهم . وكان من نصيب برتراند رسل أنه تعرض لهجوم اثنين من السكاري عليه . واندفع المعتديان صوبه حاملين هذه العوارض الخشبية يريدان

الفتك به . ولم يعرف الفيلسوف كيف يدافع عن نفسه أمام هذا النوع من الهجوم ، ولما رأت إحدى السيدات الخطر الداهم الذي يتهدد حياته ، طلبت من ضباط البوليس أن يندخلوا لحماية برتراند رسل من السكارى وهز رجال البوليس أكتافهم كأن الأمر لا يعنيهم فى قليل أو كثير ، وساء السيدة هذا الاستخفاف من جانب البوليس فصرخت فى انفعال : «ولكنه فيلسوف بارز » . ولما لم يبد رجال الامن أدنى التفات الى الفيلسوف البارز عادت السيدة من جديد الى الصراخ فى وجه رجال البوليس «ولكنه مشهور فى أنحاء العالم بأنه رجل علم » . ولم يحرك البوليس ساكنا فتفتت ذهنها عن حيلة ، وقالت للبوليس مستصرخة : «لكه أخو ايرل» . وفى الحال اندفع رجال البوليس لانقاذ برتراندرسل من براثن المعتدين . ولكن هذه المعونة من جانب الشرطة كانت متأخرة . وفى هذه الاثناء كانت إحدى السيدات الداعيات للسلام قد اعترضت طريق الاثنين من السكارى اللذين هاجما رسل واستطاعت هذه السيدة أن تحول بينهما وبين الفيلسوف حتى توفر له فرصة للفرار . وتمكن رسل أخيرا من الهرب بجلده سالما . والذى لا شك فيه أنه مدين بحياته لهذه السيدة التى اعترضت سبيل السكارى . ولولا تدخل البوليس لحمايتها لفتك السكارى بها .

كان رسل يلقى خطبة فى كنيسة الاخوة التابعة لفسييس من دعاة السلام على جانب عظيم من الشجاعة . وعلى الرغم مما تعرض له الفيلسوف ورفاقه من عنف واعتداء وتهجم فقد طلب منه هذا الفس الشجاع أن يلقى خطابا عن السلام من منبر كنيسته . ولكن جمعا من الغوغاء اجتمعوا واضرموا النار فى منبر الكنيسة . وبطبيعة الحال لم يتمكن رسل من القاء خطابه . وهانان الحادثتان هما الوحيدتان اللتان تعرض رسل فيهما لاعمال العنف فى سبيل دعوته .

وبسبب دعوة رسل للسلام طردته جامعة كامبريدج من استاذيته للرياضة بكلية ترينيتى . ثم أودعته سلطات الامن الاجليزية السجن لمدة أربعة شهور ونصف من عام ١٩١٨ . وفى السجن طاب له المقام وخاصة لان اللورد أثر بالفور تدخل لدى سلطات الامن حتى تعامله أحسن معاملة يمكن لمسجون أن يحظى بها ولا تحرمه من القراءة والكتابة طالما أنه لا يكتب داعيا للسلام ووقف الحرب . ويقول برتراند رسل أن عزله التامة فى السجن اتاحت له فرصة للقراءة الدائبة والعمل المستمر فاستطاع أن يفرغ فى سجنه من كتابة « مقدمة للفلسفة الرياضية » كما بدأ فى تأليف كتاب آخر له يحمل عنوان « تحليل العقل » . وفى السجن أبدى رسل شيئا من الاهتمام بزملائه المساجين . وظهر له من معاشرة المساجين انهم لا يقلون من الناحية الاخلاقية عن بقية الناس خارج جدران السجون ولكنه لاحظ أن قواهم العقلية بوجه عام أقل بقليل من مستوى الذكاء البشرى المعتاد . والدليل على ذلك على حد تعبير رسل المتهمك الساخر ان أمرهم افتضح وانتهى بالقبض عليهم .

وعند دخوله السجن بروى رسل نادرة حدثت له واشاعت فى نفسه المرح لمدة أسبوع كامل . فقد استوقفه حارس السجن عند البوابة

الخارجيه وطلب منه إسـتـبـيـعـاء بعض البيانات . . وسأله الحارس عن ديانتـه فأجاب رسل بأنه متشكك . فطلب الحارس الجاهل منه أن يسأله . في هـجاء هـذه الكلمـة الغريبـة عليه وهو يقول متنهـدا . . حسـناً هـناك أديان كثيرة ولكنى أعتقد انها جميعا تعبد نفس الاله ، .

وفى سبتمبر عام ١٩١٨ خرج برتراند رسل من السجن وكان من الواضح ان الحرب على وشك أن تضع أوزارها . وفى يوم ١١ نوفمبر عقدت الهدنة بين الدول المتحاربة وعاد السلام الى العالم الممزق . وعندما علم الناس خبر انتهاء الحرب عمت بينهم فرحة كبرى ودخل السرور الى قلب الفيلسوف الكبير وشارك الانسانية ابتهاجها غير أن شعوره القديم بالوحدة والعزلة سرعان ما عاد اليه .

من المنطق الرياضى الى السياسة

يؤكد برتراند رسل فى كتاباته أن الحرب العالمية الاولى قد أثرت فى مقدرات حياته فجعلته يوجه اهتمامه الى السياسة بعد أن كان اهتمامه فاصراً على دراسة المنطق الرياضى . صحيح أن الحرب الاولى لم تجعله يبعثر المنطق والفلسفة المجردة هجراناً تاماً ، الا انها جعلته يركز فكره على المشاكل الانسانية والاجتماعية ويسعى الى الوقوف على أسباب الحروب والى محاولة التوصل الى طرق لمنعها ويعترف رسل بالصعوبات الكاداء التى تكتنف مثل هذه الموضوعات السائكة كما يعترف بأن النجاح الذى أصابه فى هذا المجال أقل بكثير من النجاح الذى سبق له أن أصابه عندما توفر على دراسة المنطق الرياضى . ويعزو الفيلسوف فشله فى هذا الشأن الى أن نجاح الدعوة الى السلام وماشاكلها من هذه الامور يعتمد على حث الناس والتأثير فيهم بينما ان طبيعة تأهيله وممراته السابقة لا تساعد فى هذا المضمار .

وفى الايام الاولى من حرب ١٩١٤ استرعت انتباه رسل الصلة الوثيقة الهامة التى تربط بين السياسة ونفسية الافراد . فعندما تتفق مجموعات الناس على مسلك معين ، يكون هذا المسلك نتيجة العواطف المشتركة التى تربط بين نفوسهم جميعاً . وهذا بالذات ما دعاه الى الالتفات الى التحليل النفسى فيما بعد . كان رسل قبل الحرب العالمية الاولى يجهل التحليل النفسى جهلاً تاماً . ولكن ملاحظاته لمسلك الجماهير المسحوق بالنزعة نحو الحرب فى الايام الاولى من أغسطس سنة ١٩١٤ دلته بما لا يدع مجالاً للشك على أهمية التحليل النفسى فى فهم السلوك الانسانى . ومن خلال خبراته الخاصة بالحرب تبين له الا سبيل الى اقامة عالم يسوده السلام ويشيع فيه الامن والطمأنينة اذا لم يتم تغيير فى شعور الافراد . فشعور الكبار ان هـو الا نتيجة عوامل مختلفة :

تجاربهم في أيام الطفولة ، ونظام التعليم والصراع الاقتصادي والنجاح
والفشل الذي يصيبه الانسان في حياته وعلاقاته الخاصة والانسان الذي
يشعر بأن حياته لم تضع عبثا أو تبوء بالفشل هو الذي يستطيع أن يحمل
نحو بقية أفراد العائلة الانسانية شسوعور الشفقة والحنو والطمأنينة
والرغبة في التعاون والمساعدة . ويقول رسل في هذا الصدد : « منذ
تلك الأيام الأولى من شهر أغسطس ١٩١٤ حتى يومنا هذا اقتنعت اقتناعا
راسخا بأن الاصلاحات الأساسية فيما يتعلق بالشئون الانسانية هي
تلك التي تزيد من الشعور الطيب ، وتقلل من الضراوة نحو الآخرين » .

برتواندرسل يتحدث عن السلام

خطبة النيت في مجلس السلام العالمي في هيلسنتي

واجه الانسانية خطرا لم يسبق لها ان واجهته على مدى التاريخ الانساني ، فاما ان نبذ الحرب او يجب علينا أن نتوقع الفناء للجنس البشري ، وقد عالمت صيحات كثيرة من رجال العلم البارزين والسلطات العلمية بالاستراتيجية العسكرية منكرة بالخطر الداهم . ولا يستطيع أحد منهم أن يحدد أسوأ النتائج على وجه التأكيد .

والذي أظن أنه يجوز اعتباره أمرا أكيدا ، هو انقضاء امكانية النصر لأي من الجانبين كما هو مفهوم من معنى النصر حتى يومنا هذا . وإذا استمر الاشتغال بالحرب العلمية دون ضابط فمن المؤكد أن الحرب القادمة لن تبقى أحدا على قيد الحياة ويستتبع هذا ان الامكانيات الوحيدة أمام الانسانية تنحصر اما في السلام عن طريق الاتفاق أو السلام الذي يحلن فوق الموت الشامل .

وستساعدنا سلسلة الخطوات التي اقترحها ، كما اعتقد ، في الوصول الى الحل الاسعد ولا شك ان هناك وسائل أخرى للوصول الى الهدف نفسه ، ولكن من المهم ألا ينجح اليأس في شل نشاطنا ، ويمنع من أن تمشل في أذهاننا ولو طريقة واحدة على الأقل محدودة المعالم للوصول الى سلام أكيد .

وقبل أن أعرض لهذه الخطوات ، أحب أن أعلق على وجهة نظر اعتقد أن الصواب يجانبها ، ويدعو اليها أصدقاء و للسلام مخلصون ممن يذهبون الى القول بأن ما نحتاج اليه هو اتفاقية بين الدول الكبرى تتمهد فيها بعدم استخدام الاسلحة النووية على الاطلاق . ولكني أعتقد أن محاولة الوصول الى مثل هذه الاتفاقية ستفضي الى طريق مسدود لسببين

وأول هذين السببين أنه يمكن انتاج مثل هذه الاسلحة الآن بدرجة من السرية التي تتحدى التفتيش . وسيستتبع ذلك انه حتى لو ابرمت اتفاقية لحظر استعمال مثل هذه الاسلحة فسيظن كل جانب ان الجانب الآخر يقوم بانتاجها سرا . وسيجعل الشك المتبادل العلاقات أكثر توترا عما هي عليه .

ونقطة الجدل الأخرى هي انه حتى لو امتنع كل من الجانبين عن انتاج مثل هذه الاسلحة في فترة السلام الاسمية فلن يشعسر أي من الجانبين انه ملتزم بالاتفاقية في حالة نشوب الحرب فعلا وسوف يمكن لكلا الجانبين انتاج قنابل هيدروجينية عديدة بعد البدء في القتال .

هناك كثير من الناس الذين يخدمون أنفسهم معتقدين أن القتال

الهيدروجينية لن تستخدم بالفعل اذا سببت حرب • ويشير هؤلاء الناس الى أن الغازات السامة لم سنعمل في الحرب العالمية الثانية • وأخشى أن هذا لا يعدو أن يكون وهما كاملا • فالغازات السامة لم نستخدم ، لانه وجد انها غير حاسمه ، وأن افنعة الغازات نهي من الخطر • والقنبلة الهيدروجينية على العكس من ذلك سلاح حاسم لم تكتشف حتى الآن وسيلة للحماية من خطره • ولو استخدم أحد الجانبين هذه القنبلة دون أن يستخدمها الجانب الآخر فمن المحتمل أن الجانب الذي سيبدأ باستخدامها ، سيجعل الجانب الآخر في مركز العاخر عن طريق استعمال قدر ضئيل من القنابل التي لن تسبب أي دمار يذكر للجانب الذي استعمالها اذا كان الحظ حليفه • فالدمار الأكثر فظاعة الذي يخشى منه يعتمد على انفجار عدد كبير من القنابل •

ولذلك فانا أظن أن الحرب التي يستخدم فيها جانب واحد فقط القنابل الهيدروجينية قد ننتهي الى شيء يستحق أن يسمى انتصارا لهذا الجانب • ولا أظن - وفي هذا تجدني متفقا مع سائر السلطات العلمية بالمشئون العسكرية - أنه ليس هناك أدنى فرصة في عدم استعمال القنابل الهيدروجينية في حالة نشوب حرب عالمية • ويستتبع ذلك أننا يجب أن نقوم بمنع الحروب النساملة والا كتب علينا الهلاك • وانها لخطوة ضرورية في طريق السلام أن تحمل حكومات العالم على الاعتراف بهذا • وباختصار ، ان القضاء على القنابل الهيدروجينية وهو أمر يجب علينا جميعا أن نرغب فيه لا يمكن أن يصبح ذا فائدة الا بعد أن يجتمع الجانبان في محاولة صادقة لوضع حد للعلاقات العدائية بين العسكريين • كيف يمكن تحقيق هذا ؟

لا بد من تحقيق هدفين قبل أن نصبح الموائيق والتدابير الدولية ممكنة •

أولا - على الدول الكبرى أن تدرك انها لا يمكن تحقيق أهدافها ، مهما كان نوعها عن طريق الحرب •

ثانيا - أن يعل الشك المتبادل من الجانبين في أن كلا منهما يستعد للحرب كنتيجة لهذا الادراك العالمي الشامل •

وفيما يلي بعض المقترحات الخاصة بالخطوات التي يمكن اتخاذها لتحقيق هذين الهدفين :

يجب أن تكون الخطوة الاولى في شكل بيان يصدره نفر قليل من أبرز العلماء بشأن الاثر الذي يجب علينا توقعه من جراء حرب نووية •

من الجانبين ومن المهم أن تذكر لنا السلطات العلمية في لغة واضحة كما يجب إلى يتضمن البيان تحيزا ، مهما يكن طفيفا ، لصالح أي الدور التي ينبغي على الدولتين الحياديتين الممثلتين أن تعليها فيقول ان ما ينبغي عليهما توقعه ، بنسبة الطرق ، ومدىنا بمعلومات أكيدة من هذه العلماء أمكن ذلك كما تذكر لنا الفرض الأكثر احتمالا اذا كان الدليل القاطع لا يتوقف للذين • ويمكن لمن هم على استعداد لتحمل المشاق الكبير في

استيعاء المعلومات وجمعها أن يتأكدوا في الوقت الحاضر من صحة معظم الحقائق في الحدود التي تسمح بها المعرفة القائمة . ولكن الذي نحتاج إليه هو عرض المعلومات بأبسط أسلوب ممكن وأن تكون هذه المعلومات في متناول يد الناس والعمل على ذبوعها على أوسع نطاق ، كما يجب أن يتوفر لدى المشتغلين بنشر هذه المعلومات بيان مدعم بالحجج ، موثوق به للاستناد والرجوع إليه . وأن يبين البيان في جلاء لا يرقى إليه الشك أن الحرب النووية لن نعود بالنصر على أي من الجانبين ، وأنها لن تخلق العالم الذي يريده الشيوعيون ، أو العالم الذي يريده المناهضون لهم ، أو العالم الذي ترغب فيه دول الجهاد . .

ويجب دعوة العلماء في أنحاء العالم إلى المساهمة في هذا البيان العني ويحدوني الأمل في أن يشكل هذا التقرير خطوة تالية ، أساسا لعمل بمقتضاء إحدى الحكومات الحيادية أو أكثر ، ويمكن لهذه الحكومات أن تقوم بتقديم هذا التقرير ، أو تقرير يضعه علماءها المتخصصون إذا كانت تفضل ذلك إلى كل حكومات العالم الكبرى وتدعوها للدلاء برأيها فيه ، ويجب أن يكون التقرير ذا وزن علمي يؤازره بآلية التي يكاد يتعذر معها على أية حكومة أن تدحض ما فيه من بيانات علمية . ويمكن للحكومات الواقعة على جانبي الستار الحديدي أن تعترف دون أن تنفقد ماء وجهها للحكومات الحيادية بأن الحرب لم تعد تصلح كاستمرار لأساليب السياسة . والهند بالذات من بين دول الحياد في وضع مفضل بطرا لأنها على علاقات صديقة مع كل من الكتلتين ولما لها من خبرة ودراية في التوسط الناجح بين كوريا والهند الصينية . وأنا أود أن أرى الحكومة الهندية تقوم بتقديم هذا التقرير العلمي إلى الدول الكبرى وتدعوها إلى التعبير عن رأيها فيه . وأمل أن يحمل الجميع بهذه الطريقة على الاعتراف بأنهم لن يفيدوا شيئا من حرب نووية .

ومن الضروري في الوقت نفسه إجراء تعديلات معينة في أفكار هؤلاء الذين ما زالوا حتى الآن مندفعين في مشايعة الشيوعية أو ماهضتها . ويجب عليهم أن يدركوا أن السبب الموجه إلى الجانب الآخر أو تأكيد خطاياهم السابقة أو الشكوك في بواعنه ونياته لن تخدم غرضا مفيدا . وليسوا بحاجة لأن يتخلوا عن آرائهم في تفضيل نظام على آخر . كما أنهم ليسوا بحاجة إلى التخلي عن المفاضلة فيما يختص بسياسة بلادهم الحزبية . والامر الذي يجب عليهم جميعا الإقرار به هو أن نشر الرأي الذي يفضلونه لا بد أن يتم عن طريق الحث والاقتناع . لا القوة والعنف .

دعنا نفترض الآن أن الدول الكبرى قد أمكن اغراؤها عن طريق هذه الوسائل المقترحة على الاعتراف بأنه لا يمكن لأية دولة منها أن تحقق أهدافها بالحرب وأن هذه لأصعب خطوة ، إذن فما الخطوات التي يمكن اتخاذها بعد ذلك ؟

الخطوة الأولى التي ينبغي اتخاذها على الفور تنحصر في التهديد المؤقت للصراع سواء كان ساخنا أو باردا بينما تستنبط في الوقت ذاته

تدبيرات أكثر دواما . وحتى ذلك الحين لا بد أن تكون الهدنة المؤقتة مبنية على أساس الاحتفاظ بالاوضاع القائمة لعدم توفر أساس آخر لا يحوى مبادئه مفاوضات عسيرة ، وينبغي لمثل هذه المفاوضات أن تجيء فى حينها . ولتكون هذه المفاوضات مثمرة فلا بد من عدم إجرائها فى جو العداوة والشحناء والشك القائم فى الوقت الحاضر ، وعندما تخف حدة الكراهية والخوف فى خلال هذه الفترة ، ينبغي تخفيف وطأة الشتمات الصحفية ، وحتى الانتقادات التى يكيلها كل من الطرفين للآخر بوجه حق لا بد من إسكاتها . وينبغي تشجيع التجارة المتبادلة وتزاور الوفود المتبادل وخاصة النوع الثقافى والتعليمى منها . لا بد أن يحدث هذا كله على سبيل تمهيد الجو المناسب لعقد مؤتمر ، وتمكين هذا المؤتمر من أن يقضى على الصراع من أجل القوة .

وعندما يتم خلق جو ودى بعض الشيء باتباع هذه الأساليب ، ينبغي أن يتعقد مؤتمر دولى ، الغرض منه هو خلق سبل دون سبيل الحرب لتصفية الخلافات بين الدول . وهذا عمل شاق لا لضخامته وتعقيده فحسب بل بسبب التعارض الحقيقى الكبير الذى قد ينشأ فى المصالح . ولا أمل فى نجاح هذا العمل الا اذا كانت الآراء قد أعدت اعدادا كافيا . وعلى مندوبى هذا المؤتمر أن يجتمعوا بحيث يكون رائدهم الاقتناع الراسخ بأمرين لا بد أن يكونا ماثلين فى ذهن كل مندوب منهم

أولهما : الاقتناع بأن الحرب تعنى الدمار الشامل

وثانيهما : الاقتناع بأن تصفية النزاع عن طريق الاتفاق أيسر للمتنازعين من استمرار النزاع حتى ان لم يكن هذا الحل مرضيا تماما لاي من الطرفين .

ولو تشرب المؤتمر هذه الروح لاستطاع أن يمضى قدما بحدوده شيء من الرجاء الناجح فى معالجة المشاكل الضخمة التى ستعرض له .

وأولى هذه المشاكل التى يجب معالجتها هى خفض التسليح الفومى . وطالما ان هذا التسليح سيظل على ما هو عليه فى الوقت الحاضر فمن الواضح ان نبذ الحرب لا يتسم بالاخلاص .

وينبغي إعادة الحريات التى سبق وجودها قبل عام ١٩١٤ وخاصة حرية السفر وحرية تداول الكتب والمجلات والتخلص من العقوبات التى تعترض نشر الافكار عبر الحدود القومية . وإعادة هذه الحريات السابقة خطوة من الخطوات الضرورية نحو الإدراك بأن الانسانية تكون عائلة واحدة ، وان المنازعات بين الحكومات عندما تشتد حدتها كما تشتد الآن ليست سوى عقبات فى سبيل السلام .

ولو تحققت هذه الاعمال الشاقة فسيمضى المؤتمر قدما الى خلق سلطة عالمية سبق للعالم ان حاول تحقيقها مرتين ، أولا : عن طريق

عصبة الامم ، وثانيا عن طريق هيئة الامم وأنا لا اعتزم الدخول في تفاصيل هذه المشكلة الآن مكتفيا بالقول بانها ان لم تجد حلا فلن تكون للتدبيرات الاخرى اية قيمة دائمة .

ومنذ عام ١٩١٤ حتى الآن نعرض العالم بعينه مستمرة للهلج المتزايد ، وهلك أعداد هائلة من الرجال والنساء والاطفال ، وجربت نسبة كبيرة جدا ممن كتب لهم البقاء على قيد الحياة الخوف من الموت . وعندما يفكر الغربيون في الروس والصينيين وعندما يفكر الروس والصينيون في الغربيين ، فهم يفكرون في بعضهم البعض أساسا على انهم مصدر للدمار والتخريب ، لا على انهم بشر عاديون لهم القدرة الانسانية العادية على الفرح والحزن . وبدا من الواضح أكثر فاكثرا ان الاستخفاف هو المخرج الوحيد أمامهم من اليأس والقنوط ، كما بدا انه لا يمكن ادراك المخرج الذي يمكن التوصل اليه عن طريق الامل المتزحل والسياسية البناءة . ولكن اليأس الذي لا يابيه شيء ليس بالحالة الذهنية الوحيدة العاقلة في العالم الذي نجد فيه أنفسنا ، ويكاد البشر عن بكره ابيهم في أرجاء العالم أن يكونوا أسعد حالا وأكثر انتعاشا اذا توقف الشرق والغرب عن التشاجر والعراك . وليست هناك حاجة لان يطلب من أحد أن يتخلى عن أي شيء الا اذا كان هذا الشيء هو الحسليم ببناء امبراطورية عالمية وهو حلم يفوق في استحالاته الآن أكثر المدن الفاضلة تفاؤلا . لقد توفرت لدينا الآن الوسائل التي لم تتوقر لأحد من قبل للحصول على فيض من الضرورات ووسائل الراحة التي نحتاج اليها في خلق حياة طيبة كريمة ، واذا تحقق السلام استطاعت روسيا والصين أن تخصصا كل أوجه النشاط المنصرفه الآن الى التسليح لانتاج البضائع الاستهلاكية .

والمهارة العلمية الهائلة التي تتسبب في انتاج الاسلحة النووية تستطيع أن تحيل الصحاري الى واحات مثمرة وتتسبب في سقوط الامطار في صحراء افريقية وصحراء جوبى وبالتخلص من الدخول ستنتقل طاقات جديدة وتحلق روح الانسان عالية وتصبح قادرة على الخلق والابداع والتجديد ، وستتبدد المخاوف القديمة السوداء التي تقبع في أعماق أذهان الناس .

لن يكون هناك منتصر في حرب نستخدم القنبلة الهيدروجينية ، ويمكننا أن نحيا معا أو نموت معا . واعتقد اعتقادا راسخا انه لو ان الذين يدركون منا هذا وهبوا أنفسهم بقوة كافية من أجل هذا العمل فسنتطيع أن نجعل العالم يدركه كذلك . فالشيوعيون والمناهضون للشيوعية على حد سواء يفضلون الحياة على الموت . ولكل الامر اليهم في وضوح وجلاء لاختاروا التدابير الضرورية للمحافظة على الحياة . وهذا أمل ينطوى على جهد ومشقة لأنه يتطلب من جانب الذين يرون المشكلة منا في مجملها المعقد المتعرج انفاق طاقة هائلة في الحث والاقناع للذين يشوبهما دائما الادراك المؤلم بأن الوقت قصير كما يشوبهما التعرض لاغراض الهستريا التي تجيء نتيجة لتأمل خطر الهاوية

• فمنمكنة • وعلى الرغم من ان الامل تكتنفه الصعاب الا انه ينبغي ان يكون
حيا مائلا • وينبغي ان نؤمن به ايماننا واستخار بزم ما يمكن ان نتعرض
له من تثبيط للهمم • وينبغي ان يلهم هذا الامل حياة عسدد من الناس
وربما لا يتجاوز قلة ضئيلة في بادئ الامر سيكتب لها التزايد تدريجيا
حتى يجتمع شمل البشر وهم يطلقون صيحة الفرح العظيمة ليحتفلوا
بنهاية القتل المنظم ولارساء قواعد عهد اسعد من أى عصر كان من نصيب
الانسان حتى الآن •

التعقل والحرب النووية

مقدمة

في كتيب لبرنارد رسل صدر عام ١٩٥٩ تحت عنوان «الدفع والحرب النووية» يعلن الحكيم الكهل ما يلي :

١ - أسفه على سك الغرب في نيات الداعين لحملات السلام وانهاهم لهم باليسارية وتغير الرأي العام من القائمين بالدعوة الى السلام .

٢ - ان مصير الانسانية معلى في الميزان من جراء الخطر النووي الداهم وأنه من الضروري ايجاد حل يضمن للبشرية بقاءها وفيها من الغناء ، فمصير الانسانية أجل شأنا من المنازعات الايدولوجية بين الغرب والسرق . ويؤكد رسل ان الموازنة أو التفضيل بين النظام البرلماني والديمقراطي والنظام الديكتاتوري والشيوعي في هذه الآونة العصيبة كأساس للحياة الاجتماعية على حساب البقاء الانساني ان هو الا عبث ظاهر واسمتهار بالقيم الانسانية .

٣ - ان مشكلة السلام مشكلة العالم بأسره ولا بد من تضافر جهود جميع دول العالم لاقاراره بما في ذلك الدول المؤمنة بعدم الانحياز .

أخطار الحرب النووية

يعرض الجزء الاول من هذا الكتيب لسرح محاطر الحرب النووية التي قد تعصف بالوجود الانساني كله ويعتمد رسل في تفديره لبطورة الموقف الدولي على تقرير وضعته لجنة خاصة من الخبراء الامريكان تعمل تحت رعاية « الجمعية الامريكية للتخطيط القومي » ويحمل هذا التقرير العنوان التالي « ١٩٧٠ من غير رقابة على الاسلحة : مضمون تكنولوجيا الاسلحة الحديثة » . وواضع التقرير كما أشربا من الخبراء الامريكان وهم بالاضافة الى ذلك قوم لا علاقة لهم مطلقا بالحملات الموجهة ضد الحرب النووية وبمعنى آخر هم طائفة من الخبراء التي لا يعنيههم التهويل في أخطار الحرب النووية في سبيل الدعاية لفضية السلام ، فهدفها الاول والاخير هو استجلاء الحقائق الخاصة بالدمار النووي في حدود الموضوعية التي يمكن لانسان أن يتصف بها .

يبني هذا التقرير فروضه ونتائجه على أساس أن حربا شاملة لن تنشب حتى عام ١٩٧٠ ورغم هذا فالتقرير لا يستبعد احتمال نشوب حرب شاملة . كما يجزم بأن الحرب الشاملة ناشئة لامحالة اذا استمرت الأوضاع في العالم على ما هي عليه دون التوصل الى حل آخر . ويخلص رسل من هذا الى أن هيستيريا الخوف والفرع ستصيب الشعوب وان نفقات التسليح ستزداد يوما بعد يوم تبعاً لذلك . وسيضطرب الناس أمام هيستربا الهلع لقبول الفاقة الاقتصادية . وسينخفض مستوى المعيشة

الراهن في أمريكا الى مستوى المعيشة في كل من آسيا وأفريقية بدلا من أن يرتفع مستوى هاتين القارتين حتى يصل الى ما أصابته أمريكا من رفاهية ورخاء لو أنصت العالم لصوت الحكمة والعقل واستخدم المعرفة التكنولوجية الحديثة من أجل السلام لا من أجل الاستعداد للحرب . كما ستؤدي هيستيريا الهلع بطبيعة الحال الى تقلص الحريات وانكماشها لنلق نظرة مع الفيلسوف الكهل الى ميزانية التسلح كما وردت في تقرير الخبراء الامريكان . ان أمريكا تنفق ٤٥ بليون دولار على التسلح سنويا . ويقول التقرير في هذا الصدد (تخصص الولايات المتحدة ١٠٪ من مجموع الانتاج القومي في الوقت الحاضر للاغراض العسكرية ، وتقدر ميزانية التسلح في الاتحاد السوفييتي بـ ١٥٪ من جملة الانتاج القومي فيها) . ويقول رسل ان العالم سيكون قد أنفق حتى عام ١٩٧٠ ما بين ١٥٠٠ بليون و ٢٠٠٠ بليون دولار اذا استمر جنون التسلح على هذا المنوال .

ويفضح رسل حلم العسكريين في الغرب وانشق ، هذا الحلم المجنون الذي يهدف الى استخدام الاقمار الصناعية للاغراض العسكرية وذلك بتزويدها بأجهزة حاسبة الكترونية تجعل من الممكن توقيتها بحسب نمط الموت وبالا على أرض الاعداء وتتوقف عند عبورها فوق أرض الاصدواء .

ويستطرد رسل فيبين كيف ان العسكريين في العرب والشرق على حد سواء يعملون على نقل الحرب من كوكب الارض الذي نعيش عليه الى الفضاء ويستشهد على ذلك بشهادة الجنرال الامريكي بوت Putt التي ادلى بها أمام لجنة خاصة بالقوات المسلحة . فقد شرح الجنرال بوت أمام هذه اللجنة أن سلاح الطيران الامريكي يهدف الى اقامة قاعدة عسكرية في القمر كما أوضح في شهادته المزايا العسكرية الناجمة عن اقامة هذه المنشآت القمرية اذ ان اطلاق قذائف الموت من القمر الى الارض لا يحتاج الى طاقة كبيرة بسبب عدم وجود غلاف جوى حول القمر من ناحية . وضعف جاذبيته من ناحية أخرى . وقد صرح الجنرال بوت بالحرف الواحد بأنه « من الممكن أن يزودنا القمر بقاعدة لرد الاعتداء ذات ميزة قصوى على دول الأرض » . وفي تقديره أن الولايات المتحدة حتى بعد أن تندثر من على سطح الأرض نتيجة لهجوم روسي خاطف عليها تستطيع أن تدمر روسيا وتنتقم لنفسها عن طريق منشآت في القمر . وقد أيد وجهة نظر بوت العسكرية هذه ريتشارد . ا . هورنز السكرتير المساعد لسلاح الطيران للبحث والتطوير ورأى فيها خروجاً من المأزق الذي فرضه التسلح النووي على كوكب الارض . واضطر أحد هذين السيدين الكريمين وهو الجنرال بوت أن يعترف في آخر الامر أنه يمكن للاتحاد السوفييتي التوصل الى انشاء مثل هذه المحطات على سطح القمر كذلك غير أنه نصح الولايات المتحدة أن تسعى جاهدة الى السبق في ميدان غزو الفضاء والمبادرة باحتلال كواكب أخرى مثل المريخ والزهرة نظراً لفوائدها العسكرية الجمة .

والغريب في الامر كما يذكر رسل أن مثل هذه الاخبار ظلت في

طلى الكتمان بالنسبه للرأى العام وامنعنت الجهات الرسمية عن اداعتها .
ويقول رسل انه لو لم تنشر المجلة الاسبوعية اى . ف . ستون الصادرة
فى ٢٠ أكتوبر عام ١٩٥٨ هذه المعلومات لما امكنه ان يحيط بها علما .
ويقترض رسل ان الاتحاد السوفيتى يفكر فى مثل هذه المشروعات
المجنونة وان كان يجهل كنهها . ويبدى الفليسوف الكبير اشمترازه
وفزعه من مشروعات العسكريين هذه التى تدنس طهارة السماء وتلطخ
الاجرام العلوية باخفاد البشر وضغائنهم الصغيرة ومنازعاتهم الوضعية
التافهة . ويأسى رسل لحال الانسان الذى يملك من جوانب القوة الشيء
الكثير ولكنه لا يتصف بالحكمة فى قليل أو كثير . ولكن الامل يحذوه
أن ينعلم صوت العقل والتسامح فى هذا العالم المحموم على قوى الشر
والظلام .

وفى هذا السفر الصغير يحمل فيلسوف العقل والتسامح حملة
شعواء على المنادين بسياسة حافة الهاوية سواء كان المنادى بها دالاس
فى الغرب أو غيره فى الشرق ولا يكتفى رسل بالتنديد بهذه السياسة
الخرفاء بل يفضح روح الاستهتار التى تتضمنها هذه السياسة فيذكر
لنا ما ترامى الى سمعه من أن أصل سياسة حافة الهاوية مستمد من لعبة
يمارسها بعض الشبان المستهترين والمنحرفين فى أمريكا . وتجري اللعبة
على النحو التالى : يختار متنافسان من قائدى السيارات شارعا كبيرا
يعضله فى الوسط خط ابيض يمتد بطول الطريق . وتبدأ اللعبة بأن
بتحرك أحد المتنافسين بسيارته فى سرعة جنونية بحيث يكون جانب
السيارة التى يتولى قيادتها على طول الخط الابيض وفى نفس الوقت
يتحرك نحوه المنافس الثانى من الاتجاه العكسى على الجانب الآخر من
الطريق بنفس السرعة الجنونية وبحيث لا ينحرف هو أيضا بجانب
سيارته عن الخط الابيض الذى يتوسط الطريق . فاذا حدث أن انحرف
أحد المتنافسين بسيارته تغاديا للتصادم المروع والهلاك المحقق غيره زميله
بأنه (كتكوت) وكان انحرافه بالسيارة دلالة على جبنه وهوان شأنه .
ويتساءل رسل بأسلوبه الساخر الذى عودنا عليه كيف يمكن للعالم
المتمدن أن ينظر الى من يمارسون هذه اللعبة التى تؤدى بشاين نظرتهم الى
مستهترين لا خلاق لهما بينما يمجّد السياسة الذين ينقلون لعبة الموت هذه
الى المجال الدولى فيعرضون بذلك مئات الملايين من البشر للفناء ويخلع
عليهم رداء الحكمة والحصافة !

ماذا سيحدث اذا نشبت حرب نووية ؟ يجيب رسل عن هذا
السؤال بأسلوبه الساخر فيقول ان تقديرات الخبراء متباينة فى هذا
الصدد فمنهم من يعتقد ان الحرب النووية لن تهلك الكثير اذ انها ستغنى
نصف البشرية لا غير ومنهم من هم أكثر تفاؤلا فيذهبون الى الاعتقاد
بفناء ربع البشر ولكن المتشائمين من الخبراء يرون ان الحرب النووية
ستعصف بالوجود الانسانى من جذوره . ويعلق رسل على هذه
التقديرات ساخرا فيقول اننا سنتبين مقدار الصدق فى كل منها بعد
نشوب الحرب النووية لا قبلها .

ويهزأ رسل من الفكرة الداعية الى استخدام « القنبلة النظيفة » فى

الحرب العارضة على اعتبار ان عبارها الدرى اقل خطرا على الكيان
الاسانى وينبنا كيف يمكن لنا أن نضمن ان « القنبلة النظيفة »
ستستخدم بدلا من القنبلة الاخرى غير النظيفة فى حالة نشوب حرب .

لا بد أن يفهم رجال السياسة فى العالم ان التسعوب ترغب فى
البقاء وانها لا تكثر كثيرا بالمنازعات الايدلوجية وان الجانب السياسى
فى حياة الانسان ظفيف كما ينبغى على الساسة فى العالم ان يدركوا
الوشائج التى لا تنقسم والتى تربط الكيان الانسانى غربا وشرقا
فالانسانية جمعاء تجمعها وحدة الامال والأفراح والاحزان . حتى الانسان
الذى يعيش فى الميلاد الذى يتلقى أهلها تعليما سياسيا ينصرف الى
مشاكل الحياة اليومية بعيدا عن السياسة ومنازعاتها فهو يأكل وينام
ويحب ويقيم عواطف اسانية تربطه بأهله وعشيرته كما أنه يجب أن
يفهم رجال السياسة مدلول هذه الحقيقة حتى لا يقيموا الدنيا ويقعدوها
بعجيجهم الزائف عن مدى الخلاف بين النظام الديمقراطى والنظام
السيوى . ان الذين يرضون لانفسهم وللجنس البشرى الهلاك سوء
فى الغرب أو فى الشرق لانهم يفضلون الموت على الخضوع لنظام اجتماعى
واقتصادى وسياسى يكرهونه هم فئة قليلة مريضة بالمشاحنات السياسية

ويعجب رسل من زيف أو غفلة بعض الغربيين الذين يبدو
استعدادهم للدور فى حرب بويه دفاعا عن الحرية الديمقراطية
ويتحداهم أن يسفقتوا شعوب الارض فاطبة فى هذا الشأن وإن يطرحوا
السؤال التالى على كل فرد من أفراد الارض حتى يتبينوا بأنفسهم اذا
كانوا يمثلون ارادة الشعوب ورغبتها أولا . أفضل أن تعيش تحت
نظام سياسى واقتصادى يختلف عن النظام الذى نعيش فيه أو تفضل
القضاء على الانسانية بأسرها؟ ولو أننا طرحنا هذا السؤال على أى انسان
لا تهمنا بالجنون ورومانا باللونة وهو معنى فى ذلك فبناء الانسانية
وسلامتها من الغناء فوق كل اعتبار .

الخروج من المأزق النووى

ما الحل إذن ؟ لا بد من تقارب فى وجهات النظر الدولية لا بد ان
نعيد الى اذهاننا الدروس التى تعلمناها فى القرنين السابع والثامن عشر
وهى الانصاف الى صوت العقل والتسامح . لقد نسينا الدرس الذى
تلقيناه على يد « لوك » فليسوف العقل والتسامح فى القرن الثامن عشر .
لقد كنا عقلاء عندما تسامحنا فى الاديان وعندما آمننا بأن الحقائق الدينية
يمكنها أن تعيش جنباً الى جنب فى وئام وسلام . وان الحروب الدينية
أثر من آثار الماضى البقيض . لقد تعلم المسيحيون والمسلمون أن يعيشوا
جنباً الى جنب كما أدرك الكاثوليك والبروتستانت حماقة اراقة الدماء
بسبب الخلاف العقائدى ولكننا لم ندرك حتى الآن أهمية العقل والتسامح
فى المجال السياسى .

على الدول الكبرى أن تسعى مخلصا الى اقرار السلام لا الى
المناورات السياسية التى تهدف الى تسجيل انتصارات دبلوماسية فى
حرب الدعاية . ورسلا لا يطالب أبداً دولة من الدول الكبرى بأن تتنازل

أو تتخلى. عما نراه مصلحه حيويه لها كما أنه لا يطالبها بالاسنسلام من أجل صيانة السلام .- يؤكد رسل أن هذا غير معقول وغير مننظر بإيه جال من الاحوال . ولذلك يفترح ضرورة بجميد الاوضاع الراهنه في العالم والاحفاظ بميزان القوى الدولى فى الوقت الحاضر ويهدف رسل بتجميد الاوضاع الى بحفيف حدة التوتر العالمى بقاديا للمزيد من العلاف والمنالزعات التى تبرها صحف الحرب الباردة . وليس معنى هذا أن يطل ميزان القوى على ما هو عليه . ولدن هذه التغيرات لا بد أن تتم بالطرق السلمية دون الالتجاء الى الحروب ودون التهديد بها . والاحتفاظ بميزان القوى كما هو عليه فى الوقت الحاضر ليس الا خطوة تمهيدية من شأنها أن تخلق الجو المناسب لزيادة التفاهم الدولى توطئة للوصول الى حل شامل لكل المشاكل الدولية .

ويشرح رسل أن يبدأ طرفا النزاع بإصدار بيان يعهدان فيه بنبد سياسة العنف وبعدم الالتجاء الى الحرب كأساس لحل المشاكل الدولية كما يعهدان بصيانة ميزان القوى الدولى كما هو عليه وبعدم السعى الى تغييره عن طريق الاثارة والتحريض . كما يفترح رسل ضرورة ابعاف التجارب النووية وقبول الطرفين لمبدأ الخضوع للرقابة والنفتيش على الاسلحة بعد أن يتخلص الجانبان من تلك الرية المتبادلة التى نفق حجر عثرة فى سبيل الوصول الى تسوية سلمية للمشاكل الدولية .

وينصح رسل بإقامه هيئته مسنركة دائمة للوساطة والمفاوضات بين الغرب والشرق ، لا نهدف الى ايجاد الحلول بل الى الاسنطلاع والاستكتشاف تمهيدا ليجاد الحلول وبمعنى آخر أن الهدف من تكوين هذه الهيئته هو خلق جو من الثقة المتبادلة . ويشرح رسل أن تكون هذه الهيئته محدودة الاعضاء بحيث لا يزيد عن ستة أعضاء : عضوين من الولايات المتحدة وعضوين من الاتحاد السوفيتى وعضو يمثل الغرب وعضو آخر يمثل الصين الشعبية وبالإضافة الى هؤلاء يعين عضوان آخران من دول الحياد والضمان العدالة فى ميزان قوى هذه الهيئته يختار أحد العضوين الحيادين من بلد تميل الى الاتحاد السوفيتى والعضو الآخر من بلد حيادية تميل الى الولايات المتحدة .

وهنئ رسل من نقلال أعضاء هيئته الوساطة والتفاوض هو التأكد من عدم تحولها فى نهاية الامر الى منبر من منابر الدعاية وحلبة يستعرض فيها المتصارعون عضلاتهم الخطاوية . وبشروط رسل أن يتمنع الاعضاء المعينون بثقة الحكومات التى يمثلون مصالحها . وتوفر هذه الثقة فى الاعضاء نعتبر جوهرية حتى لا تشك الحكومات المعنية فى طبيعة المقترحات أو التوضيحات التى قد تتوصل اليها هذه الهيئته . ويشرح رسل الدور الذى يتبعى على الدولتين الحياتيتين الممثلتين أن نلعبا فيقول أن وظيفة ممثلتها هى السعى الى تقريب وجهات النظر بين الغرب والشرق اذا بدا أن هوة الخلاف بينهما تتسنع كما أن عليهما التأكد من أن المقترحات المطروحة لبلبحث لا تنطوى على إفتئات جانب على مصالح الجانب الآخر . ويوجب على الدول الاعضاء اعفاء ممثلينها فى الهيئته من كافة المسئوليات الخارجية لئلا يتشتت انتباههم المقترح للأعمال الاستطلاع

والتفاوض ودراسة المشكلات المتعلقة دراسة مستعجلة . وينبغي على الهيئات أن تعمل في صمت بعيدا عن أضواء الصحافة وأجهزة الدعاية والاعلان حتى يكون الهدف من اجتماعهم هو الوصول الى الحقيقة لا الى تسجيل انتصارات دبلوماسيه . وعلى الاعضاء الستة أن يجتمعوا بصفة متكررة بالطرق الرسمي وغير الرسمي ولا يحق لاي من الاعضاء اذاعة شيء عن نتيجة هذه المشاورات الا بعد أن تكون جميع الاطراف قد اتفقت عليه . وعلى اللجنة أن تسمح مشاكل العالم كله ومصالحه المتعارضة في موضوعية وأن تحاول الوصول الى تسويات ليس من شأنها في مجموعها أن تضر بمصلحة أحد . وإذا خسرت دولة مصلحة أو فائدة معينة في جزء ما من العالم فعلى الهيئة أن تجد سبيلا لتعويض هذه الدولة عن خسارتها في جزء آخر منه . كما أنه على الهيئة النظر الى مشاكل العالم كوحدة لا تتجزأ لا كمشاكل متفرقة وأجزاء منفصلة . ولابد للهيئة أن تحترم ارادة شعوب الارض ولما أمكن ذلك . فكل شعب مطلق الحرية في اتباع نظام الحكم دون الآخر . ولكن رسل يستثنى من ذلك بعض الحالات النادرة والشاذة وهي التي يقتضى تحقيق ارادة شعب ما الى تشكيل خطر داعم وتهديد سافر لمصالح أحد أطراف النزاع فليس من المعقول بأية حال أن نسمح الولايات المتحدة لشعب بناما (على سبيل المثال) أن يقيم حكومة شيوعية على أراضيها لان في هذا تهديدا مباشرا لمصلحة هذه الدولة الكبرى وهي لن تسكت عليه بطبيعة الحال . ويعود رسل فيؤكد أنه لا يطالب أبا من العسكريين المتنازعين بالتضحية بمزايا يرى أنها حيوية بل هو يطالب فقط بتنسيق هذه المصالح بحيث لا يلحق ضررا بأى جانب في المجموع .

هناك مشكلتان لا بد للهيئة أن توليها عنايتها . (اولا) لا بد من نزع السلاح ولا بد من العمل على عدم توسيع رقعة النشاط الذرى ومن الخطر على السلام أن تنسج دائرة الدول المنسجة للأسلحة النووية ولا بد من الاقتصار فى انتاج الاسلحة الذرية على أمريكا وروسيا الى حين الوصول الى تسوية عامة دولية . (ثانيا) لا بد من اجراء بعض التعديلات فى الحدود الإقليمية لبعض الدول . وقد تسبب هذه التعديلات فى الحدود الإقليمية بعض الدول ولكن يجب ازغام هذه الدول على قبولها اذا كانت فى صالح السلام العالمى . وحل هاتين المشكلتين حلا ناجحا رهين باقامة حكومة عالمية .

مشكلات عالمية لا بد لها من حل

قبل أن نتعرض لمشروع رسل باقامة حكومة عالمية وموقف هذه الحكومات المحلية لا بد لنا من أن نستعرض رأيه فى بعض المشاكل الدولية التى يرى فى حلها دعامة للسلام العالمى . يقسم رسل المشاكل الدولية الحساسة فى العالم الحديث الى ثلاث مناطق :

١ - منطقة أوروبا : وأهم مشاكلها توحيد ألمانيا . وفى نظر رسل أن السلام لا يمكن أن يدوم الا اذا اتحدت ألمانيا ولكن شعوب وروسيا تشمر بالثقل والشهيد نحو إعادة تسليح ألمانيا فخبيرات روسيا مع ألمانيا

في الحريين العالميتين بهرر هذا القلق فهو قلق طبيعي مفهوم ولا بد لروسيا ان تامن جانب المانيا . ولذلك يعترح رسل الحد من تسليح المانيا بحيث لا تصبح خطرا يهدد الاتحاد السوفييتي كما كانت في الماضي .

ويذهب رسل الى ابعاد من ذلك فيفترح نزع السلاح من وسط أوروبا وتصفية القواعد العسكرية في غرب أوروبا وشرقها . حقيقة ان أمريكا لا نستطيع ان تصل الى عريمتها روسيا الا عن طريق انشاء قواعد ذرية في غرب أوروبا وانها بصفتها لهذه القواعد بضحي بجانب ممتاز من مركزها الاستراتيجي . ولكن الولايات المتحدة ستحصل على مايعادل هذه الخسارة من القوائد فعندما ترتفع القبضة الروسية على شرق أوروبا ستتخلل بعض الدول الشرقية عن الحكم الشيوعي مثل ألمانيا الشرقية والمجر وربما بولندا ونفضل عليه نظاما اشتراكيا برلمانيا .

٢ - الشرق الاوسط : ينبغي رسل باللائمة على الغرب لانه يناصر القومية العربية العداء لان هذا قد اعطى للاتحاد السوفييتي درسه لكي يظهر بمظهر الصديق للدول العربية ويقترح رسل ان تحمي الدول الكبرى أية دولة في المنطقة ضد توسع دولة أخرى .

٣ - منطقة شرق آسيا : لا يرى رسل حكمة في استبعاد الصين الشيوعية من الامم المتحدة وعلى الرغم من انه يتهم الصين الشعبية بالنيات التوسعية الا انه غير راض عن نجاح الغرب لحقيقة الامر الواقع واصرار على التعامل مع تشاي كاي شك باعتبار انه الممثل الشرعي للصين ويتناول رسل مشكلة فرموزا فيقول ان فرموزا لابد ان تعود في نهاية الامر الى الصين ، الأرض الأم ولكنه ينصح بأن تعطي فرموزا لتشاي كاي شك مدى الحياة لتصبح بعد وفاته جزءا لا يتجزأ من الأراضي الصينية .

الحكومة العالمية

عندما يتوافر الجو المناسب يقترح رسل انشاء حكومة عالمية . وفد نخطف فنظن ان الدعوة لحكومة عالمية دعوة يسارية أو قريبة من اليسارية وليس هذا بالصحيح ففسد دافسح فريق من حزب المحافظين البريطاني عن قيام حكومة عالمية ورأوا في انشاء هذه الحكومة الحل الحاسم لكل مشاكل الانسانية وأصدر عشرة من أعضاء البرلمان المحافظين كتيباً بعنوان (سلطة للامن العالمي) يشرحون فيه وجهة نظرهم الخاصة بانشاء حكومة عالمية وهم يعتمدون في دعوتهم على بيانات وتصريحات أدلى بها ماكميلان ودنكان ساندز وزير الدفاع البريطاني . ويدرك رسل الصعاب التي تعترض تنفيذ مثل هذا المشروع وهو يدرك أيضاً انه مشروع أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة في الوقت الحاضر . ولكنه يريد من الانسانية ان تسمى الى تحقيق هذا الهدف الكبير .

يقول رسل انه على الرغم من فشل عصبة الأمم في الماضي والأمم المتحدة في الوقت الحاضر في اقرار السلام الا انه من الممكن تطوير الامم المتحدة بحيث تصبح نواة لحكومة عالمية .

وفيما يلي مقترحات. رسل بصيود هذه الحكومه العالميه :

١ - لا بد من أن تكون لهذه الهيئه سلطة تنفيذيه تستطيع بها وضع قراراتها موضع التنفيذ ولا بد لهذه الهيئه العالميه من انشاء جيش عالمي قوي يضمن للقرارات الدوليه الاحترام والتنفيذ .

٢ - يقترح رسل. تفسييم العالم الى مناطق فيدرائيه يراعى فيها التساوى في عدد السكان بقدر الامكان وتسمى هذه المناطق بالفيدراليات. وليست الحكومه العالميه الا اتحادا عاما لهذه الفيدراليات والغرض من مراعاة التساوى في عدد السكان في حدود الامكان هو ضمان تمثيل ارائه العالم تبصلا صحيحا فليس من المعقول أن يكون لمنطقه أو دولة صغيره في تعداد سكانها مثلا يكون لدوله كبيره مكتظه بالسكان في قدرتها على التأثير في القرارات الدوليه . وتخضع هذه الفيدراليات لسلطة عليا هي سلطة الحكومه العالميه .

٣ - يجب إلغاء حق الفيتو المعمول به في مجلس الامن الذي لا يضم سوى حفنة من الدول ، فمن شأن حق الفيتو أن يعطل تنفيذ سائر القرارات التي يكاد يجمع عليها المجلس حينما يحلو لدوله ممثله في المجلس أن تفوض أركان هذه القرارات .

٤ - بما أن الغرض الاساسي من انشاء حكومه عالميه هو اقرار السلام فليس من حق هذه الحكومه العالميه أن تتدخل في المسائل الداخليه لايه دولة فيدراليه فلها أن تختار أي دين وأي نظام اجتماعي وسباسي واقتصادي يحلو لها .

٥ - الغرض من انشاء قوة ضاربه تابعه للأمم المتحده أو الحكومه العالميه هو القضاء على كل محاوله من جانب أيه فيدراليه لتعكير صفو السلام العالمي . وتصيح الأسلحه الذريه حكرًا للحكومه العالميه . ودور السلاح الذري في العالم الحديث هو نفس الدور الذي لعبه البارود في الماضي وهو منع أيه دولة قد يعن لها الاستقلال عن الحكومه المركزيه . ففي الماضي كان الامراء والافطاعيون يحتمون بقلاعهم متحدين سلطة الحكومه المركزيه ولكن البارود مكن الحكومه المركزيه من السيطرة والضرب على أيدي من تسول لهم أنفسهم الاستقلال والانفصال .

٦ - لا بد أن يراعى في تكوين وحدات القسوات المسلحه التابعه للحكومه العالميه أن تشتمل كل وحده على كل الجنسيات في العالم .

ويهدف رسل فمن هبذا الاختلاط الى منسح الجنود التابعين لجنسية واحده من التكتل في صعيد واحد فلو أن الهيئه العالميه أصدرت لواحده من وحدات جيشها أمرا بالتحرك للعمل ضد دولة تحاول تعكير صفو السلام العالمي وكانت كل هذه الوحده أو غالبيتها تنتمى الى هذه الدوله الخارجة عن القانون الدولى لعمدت الى اليكؤ في تنفيذ الأوامر أو تعطيلها اذا كان ذلك في مقدورها .

وعنلها يقترح رسل على الحكومه العالميه أن تعيكر السلاح النووي ويؤ لا يفكر في استخدامه ضد أيه من يخطئ في استخدامها ترقيض الخسوع

لاحكام القانون الدولى فالدولة المتساعبة فى نظره هى فى وضع المجرمين العاديين بالنسبة للدولة اتى يعيشون فيها والدول لا ملجا الى استخدام الجيش وعتادها الحربى لتعاقب المجرمين والخارجين على القانون والضرب على ايديهم .

٧ - لعل أخطر اعتراض على انشاء حكومه عالمية هو ان القوة الضاربة المسلحة التابعة لها قد يعن لها انقيام بانقلاب للسيطرة على مقاليد الحكم فى العالم وللضغط على السلطات المدنية ويعترف رسل انه من الناحية النظرية يجوز حدوث هذا الامر ولكنه ينصح باتباع الطرق المعروفة التى تمكن للسلطة المدنية حتى فى ألمانيا النازية وروسيا الشيوعية والولايات المتحدة الاحتفاظ باستقلالها عن أجهزة الجيش وسيطرتها .

لا بد من تغييرات هامة فى تفكير الانسان الحديث

لا بد للعالم أن يعيد النظر فى أسلوب تفكيره من جديد ولا بد له ان يختط أسلوبا جديدا يتمشى ومقتضيات العصر الحديث . لا بد للعالم أن ينصت الى صوت العقل والتسامح ولا بد له من نبذ التعصب الذى يعنى الانسان عن فضائل غيره ويؤدى الى تمجيد الانسان لفضائله التى يتوهم انه يتحلى بها دون خلق الله . والانسان المتعصب موقن انه على صواب وان غيره على خطأ دون أن يخطر له اننا جميعا بشر غير منزهين عن الخطأ .

وفى معرض حديثه عن القومية يرى رسل انها مشروعة اذا كانت تناضل عن الحرية والاستقلال ضد دولة غاصبة ولكنه لا يقبل بحال أن تتحول هذه القومية الى قوة معتدية تسعى الى التوسع والسيطرة . ويدفع رسل عن نفسه تهمة الايمان بالمسألة التى تبلغ مبلغ الاستسلام فيقول انه لم يكن فى أى يوم من الايام من المؤمنين بمبدأ مهادة الاعداء والخضوع لهم كغيره من دعاة السلام فى نظره أن الحرب مشروعة واجبة فى بعض الحالات وهو لا يقبل أن يتكرر فى العصر الحديث ما حدث فى الماضى عندما قوضت جحافل البربر أركان الحضارة فى الدولة الرومانية ويطالب رسل بأجراء تغيير شامل فى نظرة العالم التعليمية فهى فى الوقت الحاضر نظرة ضيقة تقوم على التعصب والافق المحدود ومن رأيه أن ينال علم التاريخ بالذات جانبا جوهريا من التغيير فقد دوجت كتب التاريخ فى جميع الدول على تمجيد تاريخها والتعصب لاسلوب حياتها والمبالغة فى شأن الدور الذى لعبته فى اقامة الكيان الحضارى . يجب على كل انسان أن يدرك سخافة هذا التفكير وأن يدرك أن الحضارة الانسانية والتقدم البشرى لم يقوموا على اكتاف دولة معينة دون دول العالم فقد اسهمت كل الانسانية فى بناء صرح الحضارة ومن العبث أن تفخر اية دولة بأنها أرست قواعد هذا الكيان الحضارى فهذه النظرة تفرق ولا تجمع ، تنشر العداوة ولا تبذر الحب .

يقول رسل انه سبق له فى الماضى أن اقترح أن تقوم المدارس والمعاهد التعليمية بتدريس كتب تاريخ قام بكتابتها اأجانب وعندما

يقترح رسل تدريس الكتب التي قام بتأليفها أجاناب يدرك تماما ان هذه الكتب متحيزة كسائر الكتب الأخرى ودفاعه الجدلي عن هذا هو ان كتب التاريخ المقررة أصلا مليئة بالمغالطات والتحيز وان التحيز الموجود في كتب الاجانب للتاريخ سيعادل الاثر السئ الذي قد خلفته الكتب الأصلية .

ولا بد لروح المغامرة في الانسان أن تجد لها تنفيسا غير الحرب والعلم الحديث بإمكانياته الهائلة التي لا تحدد ، يمكنه أن يستنفذ في الانسان طاقة المغامرة والكشف والاستطلاع ولو أمكن العالم أن يستبدل الرغبة في المغامرة والكشف العلمين بالقتال والحرب لحظيت الانسانية بسعادة عظمى .

موقف راسل من الحرب العالمية الثالثة

من كتابه « هل للإنسان مستقبل ؟ »

سأبدأ بأن أطلب من القارئ أن ينسى في هذه اللحظة الراهنة تفاصيل التاريخ الحديث ، والاحتمالات السياسية التي تتضمنها المستقبل القريب . وسأطلب منه أيضا أن ينسى ما يحب وما يكره ما يفضل وما يبعث ، كما ينسى معتقده الأخلاقية فيما هو خير وما هو شر . فأنا أحب أن أضع في الاعتبار هنا ، بطريقة علمية محضة واسلوب بعيد عن التحيز تماما ، الشروط التي لابد من توافرها لكي يقدر للإنسان أن يستمر حيا لأجل طويل .

وفيما يتعلق بالشروط الطبيعية ، يبدو أنه ليس هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن الحياة ، بما فيها الحياة الإنسانية ، لن تستمر لعدة ملايين من الأعوام ، فالخطر لا يكمن في بيئة الإنسان الطبيعية أو البيولوجية بل في الإنسان نفسه . لقد أمكن للإنسان أن يبقى على قيد الحياة حتى الآن بسبب جهله (١) . أما وقد فقد هذا القدر المفيد من الجهل ، فهل يمكنه أن يستمر في البقاء على قيد الحياة ؟ .

هناك نوع من البقاء المؤقت بعض الشيء ، وهو أمر ليس بعيد الاحتمال كلية . فمن الجائز أن تترك حرب نووية في المستقبل القريب بعض الناس على قيد الحياة ، ولكنها لن تبقى على أي شيء من أجهزة الحضارة . وقد يظل الشغل الشاغل للباقيين على قيد الحياة منحصرًا لدى طويل في الحصول على الطعام ، كما يجوز أن ينتهي الأمر بالانظمة الاجتماعية الى الزوال التام من حياتهم ، وأن يصبحوا عاجزين تماما عن نقل المعرفة والأساليب العلمية الى الاجيال القادمة .

في مثل هذه الظروف ، قد يكرر الإنسان تاريخ المائة ألف عام الماضية ، فبعد أن يتوصل في نهاية المطاف الى ما وصلنا اليه من حكمة في الوقت الحاضر قد يعجل للمرة الثانية بالسقوط ، عن طريق تورطه في حماقة تضارع حماقتنا . هذه صورة ممكنة الوقوع لبقاء الإنسان على قيد الحياة ، ولكنها ليست بالصورة التي نعت على الكثير من الارياح .

واذا افترضنا أن الإنسان سيظل قادرا على الأساليب العلمية ،

(١) يداب برتراند رسل على ترديد هذه الفكرة في كتاباته ، وهو يرى أن استمرار الحياة على سطح الأرض رغم كل الحروب الماضية كان نتيجة لنعمة جهل الإنسان وعدم كفاءته فيما يتعلق بوسائل الدمار . . أما الآن وقد تبدد جهله وامتلك الوسائل العلمية الفتاكة فيمكنه القضاء على الجنس البشري بأكمله . « المترجم »

فما هي الطرق الممكنة التي قد يتوصل بها للهرب من الدمار الشامل ؟ ونحن الآن بصدد سؤال أكثر تحديدا من السؤال التالي : « هل يمكن للإنسان أن يبقى على قيد الحياة ؟ » ، فنحن الآن نسأل : « هل يمكن للإنسان العلمي أن يبقى على قيد الحياة ؟ » . اننى لا انير مجرد السؤال عما اذا كان سيستمر على قيد الحياة خلال عشرة أعوام القادمة ، ولا حتى المائة عام القادمة . فقد يتحایل الانسان على البقاء حيا خلال فترات من الخطر الجسيم ، ويحالفه في هذا الحظ السعيد . ولكن لا يمكن ان نتوقع ان يستمر الحظ السعيد طويلا له الى الأبد . وسواء طال الوقت أم قصر ، فان المخاطر التي يسمح الانسان لها بالاستمرار ستقتص منه .

لهذه الأسباب ، أخشى أن يكون في حكم المؤكد ، أن الانسان العلمي لن يبقى على قيد الحياة طويلا اذا قدر للقوضى النووية الحاضرة أن تستمر . وطالما أن القوات المسلحة تأتمر بأمر أمم بمفردها ، وبأمر مجموعات من الأمم ليست على درجة كافية من القوة لكي تخضع العالم بأسره لسيطرة لا ينازعها فيها منازع — طالما أن هذا الوضع قائم فانه يكاد يكون من المؤكد أن الحرب ستنتشب أن آجلا أو عاجلا ، وطالما أن الاسلوب العلمي ما زال مستمرا ، فستزداد الحرب قدرة على الفتك والتدمير .

« آلة يوم الحشر »

هناك بالفعل امكانيات تقشعر من هولها أبدان حتى المدافعين عن القنابل الهيدروجينية . ف « آلة يوم الحشر » التي تستطيع أن تفنينا جميعا يمكن صنعها ، بل لقد تم صنعها بالفعل حسبما نعلم .

وارخص نوع للدمار اقترح حتى الآن هو قنبلة الكوبالت . وهي تشبه تماما القنبلة الهيدروجينية الموجودة حاليا ، ولا تختلف عنها سوى أن غلافها الخارجى يتكون من الكوبالت وليس من البورانيوم . وسينتج عن تفجير هذه القنبلة ضرب مشع من الكوبالت، يندثر ببطء . ولو فجر عدد كاف من قنابل الكوبالت لاندثر سكان العالم برمتهم في ظرف سنوات قليلة .

ولا تعدو قنبلة الكوبالت أن تكون وسيلة واحدة لا غير من وسائل الإبادة والفناء . فمهارات الانسان في الوقت الحاضر تستطيع أن تستحدث الكثير جدا من هذه الوسائل ، ومن غير المستبعد الا تتورع الحكومات الحاضرة عن استعمال بعضها .

ولمثل هذه الأسباب ، يبدو من المؤكد أن الانسان العلمي لن يستطيع ان يظل على قيد الحياة لمدى طويل ، ما لم توضع كل الاسلحة الأساسية للحرب وكل وسائل التدمير الشامل في أيدي سلطة واحدة ، تصبح نتيجة لاحتكار السلاح ذات قوة ضاربة لا سبيل الى مقاومتها ، واذا

حدث أن تمرضت للتحدي المفضي الى الحرب استطاعت أن تسحق
أي تمرد على سلطانها خلال أيام محدودة دون أن يصاب أحد غير
التمردين انفسهم بأذى كبير . ويبدو من الواضح أن هذا شرط لا غنى
عنه مطلقا لاستمرار الحياة في عالم يملك في حوزته المهارة العلمية .

هناك طرق مختلفة قد يتحقق بها مثل هذا العالم . فلو أن أحد
الجانبين كان يملك القنبلة الهيدروجينية ، وذلك قبل أن يتوصل
الجانب الآخر الى اكتشافها لكان من الجائز أن يتحقق هذا العالم بفعل
حرب نووية يخرج منها هذا الجانب مظفرا ، ويكون قادرا على املاء
ارادته دون أن تواجهه مقاومة مجدية . هذا الاحتمال لم يعد له وجود ،
ولا يستطيع أحد أن يقدر على وجه التأكيد مدى الدمار الذي تسببه
حرب نووية تستعمل فيها الأسلحة الراهنة . ويجب علينا جميعا أن
نأمل في استمرار هذه الحالة التي ينعدم فيها التأكيد .

من الممكن بعد حرب نووية بين دول حلف شمال الاطلسي وبين
دول حلف وارسو ، أن تحتفظ بعض الدول المحايدة بدرجة من
التماسك الاجتماعي تساعد على أن تحتفظ الحضارة من الاندثار فإذا
جعلت الصين الحكمة رائدها وبقيت على الحياد في مثل هذه الحرب ،
وإذا هبت الريح من الشرق طيلة الايام القليلة التي تستمر فيها الحرب ،
فقد تصبح الصين في وضع يسمح لها بالسيطرة على العالم . أما اذا
كانت الصين إحدى الدول المتقاتلة ، أو اذا هبت الريح من الغرب فان
سيادة العالم قد تكون من نصيب حلف يضم جنوب أفريقيا واستراليا .

وفي أي من هذه الحالات ، قد ترغب الأمة أو الامم الباقية على قيد
الحياة فلول السكان القليلة في الدول التي كانت دولا كبرى في يوم من
الايام على الاستسلام والخضوع لحكم استبدادي في عالم تستحيل فيه
مقاومة سلطان الدول التي قدر لها البقاء .

عنده ، فيما نتصور ، إحدى الطرق التي قد يمكن توحيد العالم
بها . وهي ليست بالطريقة البهيجة ، كما أنها ليست بالتأكيد السبيل
الذي ترحب به أي من الدول الكبرى التي تملك الآن الأسلحة النووية .
وعلى أية حال ، فانا لا أعتقد على الإطلاق في احتمال وقوع مثل هذه
النتيجة الناجمة عن حرب نووية ، إذ أن الاحتمال الأكبر بكثير أن يصبح
الكيان الحضاري مستحيلا في البلاد المحايدة والبلاد المحاربة على
السواء .

السبيل الى منع الحرب

سيكون السبيل المرغوب فيه أكثر من هذا بكثير والذي يضمن
الحصول على سلام عالمي، عن طريق الاتفاق بين الدول طوعية واختيارا

لكى تجمع ما لديها من قوات مسلحة ، وتخضع لهيمنة سلطة دولية متفق عليها ، وقد يبدو هذا في الوقت الحاضر أملا بعيدا وخيالبا ، ولكن هناك ساسة عمليون يعتقدون عكس ذلك .

فقد قال المستر ماكميلان (فى مجلس النواب فى مارس ١٩٥٥)
منذما كان وزيرا للدفاع متحدثا بلسان الحكومة :

« بالنسبة لمشكلة نزع السلاح بأسرها فان غرضنا بسيط ، وسجلنا نظيف ، ان نزع السلاح الحقيقى يجب أن ينهض على مبادئ بسيطتين ولكنهما حيويتين . يجب أولا أن يكون شاملا ، وأعنى بهذا انه يجب أن يشمل كافة الأسلحة ، القديم منها والجديد ، التقليدى وغير التقليدى . ويجب أن تمدنا الهيئة المسيطرة على نزع السلاح بسلطة دولية فعالة - أو فوق القومية ، اذا شئنا هذا التعبير - تتمتع بقوة حقيقية . وقد يقول أعضاء المجلس الموقرون أن هذا معناه رفع مكانة الأمم المتحدة ، أو أية سلطة غيرها ، حتى تتحول الى نوع من الحكومة العالمية . ولو تم هذا لما كان فى الأمر ما يضر . وسيكون هذا على المدى البعيد المخرج الوحيد أمام الإنسانية » .

واستطيع ان اذكر اناسا آخرين عبروا عن آراء مماثلة وليسوا من الحاكمين ولا هم يفتفرون الى الحنكة السياسية ، ولكنى لست مهتما فى الوقت الحاضر ببحث الامكانية العملية لخلق حكومة عالمية ، ولكنى متفول باستمرار بقاء المجتمع المتحضر .

من الممكن خلق نوع ما من الحكومة العالمية دون أن يتحقق استقرار السلام العالمى . قد يحدث هذا مثلا لو أن الدول المختلفة، التى تشترك بالاسهام فى القوة المسلحة للحكومة العالمية ، أمدت هذه الهيئة بفرق عسكرية قومية قد تحتفظ بوحديتها القومية ، لحكومتها القومية فى وقت السدة والأزمات بدلا من أن تدين بالولاء لسلطة دولية . ولعل من الجدير بالذكر أن نقدم مجملا « لدسنور عالمى » من الممكن وضعه بحيث يستهدف تجنب مثل هذه الاخطار . وهذا المجميل مجرد اقتراح بطبيعة الحال ، وهو ليس بالنبوءة بكل تأكيد . فغرضي فحسب هو أن أوضح أن وضع دستور عالمى لمنع الحرب مسألة ممكنة .

سلطة عسكرية عليا

إذا شئت الحكومة العالمية أن تزدى وظلفتها ، فيجب أن يكون لها سلطة تشريعية ، وأخرى تنفيذية ، وأن تكون لها سلطة عسكرية لا سبيل الى مقاومتها . والقوة العسكرية التى لا تقاوم هى أهم الشروط ، وهى أيضا أكثرها صعوبة عند التنفيذ . ولذلك فسأبدأ بمعالجتها .

ستجد كافة الدول نفسها ملزمة بالوصول الى اتفاق من شأنه أن يخفض القوات المسلحة في أية دولة الى المستوى الضروري لأعمال البوليس الداخلية . وينبغي ألا يسمح لأية دولة أن تحتفظ بالأسلحة النووية أو أية وسيلة أخرى للخراب الشامل . وينبغي أن تكون للحكومة العالمية سلطة التجنيد من كل دولة ، وسلطة صنع ماتراء لازما من الأسلحة . وفي عالم شينزع السلاح عن الدول المنفصلة فيه ، لن توجد ضرورة لكي تكون القوات العسكرية للحكومة العالمية كبيرة للغاية ، ولن تشكل هذه القوات عبئا باهظ التكاليف على كاهل مختلف الأمم الأعضاء .

ومن الضروري لمنع الانحراف نحو الولاء القومي في أى جزء من القوات الدولية أن نشتمل كل وحدة كبيرة بعض الشيء على جنسيات مختلفة . فلا ينبغي أن تكون هناك فرق أوروبية أو فرق آسيوية أو فرق أفريقية أو فرق أمريكية . بل ينبغي أن يكون هناك في كل مكان وكلما أمكن ذلك مزيج متعادل من الجنسيات (١) . وينبغي أن نعطى القيادات العليا ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ، الى أناس من دول صغيرة لا يداعبها الأمل في السيطرة على العالم . ولا بد بطبيعة الحال من أن يتوفر للحكومة العالمية الحق في التفتيش حتى تضمن أن نصوص نزع السلاح تتبعه ومعامل بها في كل دولة .

وبطبيعة الحال ، سيكون دستور الهيئة التشريعية دستورا فيدراليا . وينبغي على الدول المنفصلة أن تحافظ على استقلالها في كل شيء لا يتعلق بالحرب أو السلام . وتجاوب أى دستور فيدرالى صعوبة عندما تكون الوحدات مختلفة جدا في الحجم . هل ينبغي عند التمثيل أن يكون لكل وحدة نفس الحق في التصويت أم أن تناسب القدرة التصويتية مع عدد السكان ؟

لقد أمكن في أمريكا كما نعرف جميعا التوصل الى حل وسط بارع ، وذلك بتطبيق مبدأ التمثيل على مجلس الشيوخ وآخر على مجلس النواب . ولكنى أعتقد على أية حال أنه من الأصح تطبيق مبدأ مغاير لما هو متبع في الولايات المتحدة عند انشاء مجلس التشريع العالمى .

أعتقد أنه ينبغي أن تكون هناك فيدراليات فرعية متساوية في عدد سكانها على وجه التقريب ، كما ينبغي انشاء هذه الفيدراليات بحيث

(١) هذه الفكرة سبق لبرتراند راسل أن يرددها في كتابه « التعقل والحرب النووية » .

(المترجم) Commonsense and Nuclear Warfare.

يتوخى فيها أن تكون على قدر من التجانس والانسجام ، وأن تربط بعدة مصالح مشتركة كلما أمكن ذلك .

وكلما اشترك عدد من الدول في الانضمام تحت لواء احدي هذه الفيدراليات الفرعية ، فعلى الحكومة العالمية أن تدخل في اعتبارها العلاقات الخارجية بين الفيدراليات فقط دون تدخل من جانبها في العلاقات بين الدول المختلفة الداخلة في أية فيدرالية الا اذا كانت هذه العلاقات تنطوي على خطر الحرب أو تتضمن الاتيان بعمل فيه انتهاك للدستور .

وستختلف كيفية تشكيل هذه الفيدراليات ، دون شك باختلاف الوقت الذي يتم فيه هذا التشكيل . فلو تم هذا التشكيل في الوقت الحاضر فان الانسان يستطيع أن يقترح الترتيب الآتي :

١ - الصين .

٢ - الهند وسيلان .

٣ - اليابان واندونيسيا .

٤ - العالم الاسلامي من الباكستان الى مراكش .

٥ - افريقيا الاستوائية .

٦ - الاتحاد السوفييتي والدول التابعة له .

٧ - غرب أوروبا وبريطانيا وايرلندا واستراليا ونيوزيلندا .

٨ - الولايات المتحدة وكندا .

٩ - أمريكا اللاتينية .

وتشكل بعض البلاد التي لا تدخل ضمن هذا التقسيم بعض الصعوبات : مثل جنوب افريقيا ، وكوريا ، ومن المستحيل التخمين سلفا بما قد يكون في أية لحظة بالذات أحسن ترتيب لمثل هذه الدول .

سيادة القانون :

ينبغي أن تمثل كل فيدرالية في مجلس التشريع العالمي بنسبة عدد سكانها . ولا بد من وجود دستورين : دستور يحدد علاقة الفيدراليات الفرعية بالفيدراليات العالمية ، ودستور آخر لكل فيدرالية فرعية تكون الفيدرالية العالمية ضامنة له .

وستؤازر الحكومة العالمية الفيدراليات الفرعية والدول الأعضاء

التي تتكون منها في أي إجراء دستوري . ولا ينبغي لها أن تتدخل في الشؤون الداخلية للفيدراليات الفرعية إلا في حالة اتيان أية فيدرالية بعمل يخرق الدستور ، كما ينبغي تطبيق نفس هذا المبدأ على العلاقات بين أية فيدرالية فرعية ومكوناتها من الدول القومية .

ما هي حدود السلطة الواجب تخويلها لمجلس التشريع العالمي ؟ في الاعتبار الأول ، لا ينبغي أن تصبح أية معاهدة سيارية المفعول إلا إذا أقرها هذا المجلس التشريعي الذي يجب أن يخول كذلك سلطة إعادة النظر في المعاهدات الموجودة حالياً إذا جدت ظروف تجعل من المستحسن القيام بمثل هذا الإجراء . كما ينبغي أيضاً أن يكون من حق مجلس التشريع العالمي أن يعترض على نظم التعليم التي تنتهج سياسة قومية عنيفة قد تشكل خطراً على السلام (١) .

وستدعو الحاجة إلى إنشاء مجلس تنفيذي أيضاً ، أرى أن يكون مسئولاً أمام المجلس التشريعي . وعلاوة على الاحتفاظ بالقوات المسلحة ، فوظيفة المجلس التنفيذي الرئيسية تلخص في إزاحة الستار عن أي انتهاك لحرمة الدستور العالمي تقوم به أية دولة قومية أو مجموعة من الدول ، وتوقيع العقاب عند الضرورة على القائمين بأمر هذا الانتهاك .

وهناك مسألة أخرى بالغة الأهمية وهي مسألة القانون الدولي . فالقانون الدولي في الوقت الحاضر على قدر ضئيل جداً من القوة . ومن الضروري أن يمنح تنظيم قانوني - كمحكمة العدل الدولية في لاهاي - سلطة تمثل نفس السلطة المخولة للمحاكم القومية .

وأكثر من هذا ، فاني أعتقد أنه يجب أن يكون هناك قانون عقوبات دولي يحاكم بمقتضاه من يرتكبون جرائم شائعة ومستحبة في بلادهم ، لقد كان من المستحيل في محاكمات نورمبرج مثلاً أن يشعر الإنسان بعدالة الأحكام الموقعة كنتيجة للنصر في الحرب ، رغم أنه كان من الواضح أيضاً أنه كان ينبغي إيجاد وسيلة قانونية لانزال العقاب على أقل تقدير ببعض الذين أدانتهم المحكمة .

وأعتقد أنه إذا أرادت مثل هذه الحكومة العالمية أن يكتب لها النجاح في الإقلال من الدوافع الباعثة على الحرب ، فلا بد لها من أن تعمل جاهدة على الاقترب الدائم من المساواة الاقتصادية في مستوى المعيشة في أنحاء العالم المختلفة . فطالما أن هناك بلاداً غنية وأخرى فقيرة فسيكون هناك حسد من الجانب الآخر . ولذلك فإنه يجب أن

(١) يجب ملاحظة أن برتراند راسل يشارك القوميات المناضلة في سبيل حريتها واستقلالها ، ويدين القوميات التوسعية المعتدية .
(الترجمة)

تكون محاولة السر نحو المساواة الاقتصادية جزءاً من السعى للحصول على سلام دائم واكيد .

وعلى أية حال فهناك احساس عام منتشر بكثير من الاعتراضات القوية على انشاء حكومة عالمية . والقومية منشأ قىام أشد هذه الاعتراضات ، لقد تزايد الشعور المشايح للحرية القومية بسرعة في غضون المائة والخمسين عاما الأخيرة ، وإذا قدر للحكومة العالمية أن ترسي قواعدها فعليها أن تأخذ في اعتبارها هذا الشعور وأن تعمل كل ما في وسعها لارضائه .

والناس الذين يجادلون مدافعين عن الحربة القومية التي لا تخضع لأية قيود لا يدركون أن نفس الأسباب التي يستندون إليها تبرر الحرية الفردية غير المقيدة . اننى لن أسلم لاي انسان يحب الحرية ، لأنه اذا أردنا أن يتوفر للعالم أكبر قدر ممكن من الحرية ، فمن الضروري أن يخضع هذا العالم لقيود تحول دون الهجمات العنيفة على حرية الآخرين .

وهذا معترف به في الشئون الداخلية للدول : فجريمة القتل يعاقب عليها القانون في كل مكان . ولو ألغيت عقوبة القتل فستقل بذلك حرية الجميع باستثناء القتلة ، بل ستكون حرية القتل نفسها في غالب الأحيان حرية قصيرة الأجل لأن أمرهم سرعان ما سينتهى بالقتل . ولكن على الرغم من أن الجميع باستثناء حفنة قليلة من الفوضويين يعترفون بهذا فيما يختص بعلاقة الفرد بالدولة القومية ، فإن هناك احجاما شديدا عن الاعتراف به فيما يتصل بعلاقات الدول القومية بالعالم ككل .

والمحاولات التي بذلت حتى وقتنا هذا لسن مجموعة من القوانين الدولية جديدة بالاعجاب حقاً ، والمدى الذي استطاع القانون الدولي أن يصل اليه في اكتساب الاحترام العام مفيد حقاً . ولكن المسألة ظلب اختيارية ، لكل دولة قومية أن تختار بين احترام أحكام القانون الدولي وبين عدم الاحتفال بها . فالدول العظمى تتمتع في الوقت الحاضر بامتياز قتل أعضاء الدول الأخرى كلما عن لها ذلك ، ولكنها تغلف هذه الحرية وراء ستار الحق في البطولة والاستشهاد في سبيل الدفاع عما هو رشد وصواب والوطنيون يبدأون على التحدث عن الاستشهاد في سبيل وطنهم ، ولا يتحدثون مطلقاً عن اقتراح جرائم القتل في سبيل وطنهم .

لقد اقترفت معظم الدول في وقت أو آخر أعمالاً لن تجد الحكومة العالمية مناصباً من وضعها بالإجرام ، ولكن بعض المدنيين البعثة في هذا المضمار قد حظى باعجاب وتقدير فريق من الناس يعتبرون أنفسهم

احراراً . واكبر مثل على ذلك في التاريخ جدير بالذكر هو الإعجاب الذي يحمله أناس كـ « بيرون » و « هابنى » نحو نابليون .

وقبل ان تصبح الحكومة العالمية ممكنة ، سيكون من الضرورى حمل الناس على ادراك استحالة دوام الفوضى الدولية الراهنة ، في وقت توجد فيه الاسلحة الحديثة للدمار الشامل .

ضبط النفس

والاعتراض القوى الآخر على قيام حكومة عالمية ، وخاصة من جانب الدول الشيوعية ، يتلخص في انها قد تجرد الأوضاع الراهنة . وطالما ان الصراع بين الشيوعيين وأعدائهم سيبقى على ما هو عليه في ضراوة وحدة في الوقت الحاضر ، فسيصعب الوصول الى اتفاق على اقامة اية تنظيمات دولية يبدو من المحتمل انها ستعوق انتقال الدول الأفراد من معسكر الى آخر .

سيكون من الممكن بطبيعة الحال ان تخول أحكام القانون الدولي لكل دولة الحرية في تنظيم اقتصادياتها الخاصة بالاسلوب الذي يروق لها ، ولكنه قد يثبت أنه من الصعوبة بمكان ضمان احترام هذه الحرية احتراماً حقيقياً . واذا ارادت الحكومة العالمية ان تنجح في ارساء قواعدها ، فلا بد من زيادة التسامح بين أنواع الحكم القومى المختلفة بدرجة اكبر بكثير مما هو عليه في الوقت الحاضر . كما سيكون من الضرورى التخلّى عن جانب من اللذات الناجمة عن تأكيد الذات القومية .

قد تستمر كل دولة في التغنى بأنها أرفع شأنًا في كل أمر هام من سائر الدول الأخرى كما هو الحال الآن ، ولكن عندما تجتمع الدول من أجل التفاوض يجب على المتفاوضين ان يضبطوا انفسهم ويمتنعوا عن التعبير العام عن شعورهم بالتفوق بحيث لا ينبو عن اللوق واللياقة . ولن يكون ضبط النفس هذا سهلاً أو يسيراً اذا استمرت المشاعر القومية على ما هى عليه من حدة في الوقت الحاضر .

وهناك نقطة جدل أخرى كثيرة ما تستعمل في مناهضة انشاء حكومة عالمية فيقال : انه سينجم عن اقامة حكومة عالمية ظهور خطر جديد يتمثل في الاستبداد العسكرى . وهو اعتقاد شائع - فما الذى سيمنع القوة الدولية المسلحة من القيام بتمرد عسكرى وتعيين فائدها امبراطورا على العالم ؟

ونفس هذه المشبكة بالضبط تواجه كل دولة قومية في الوقت الحاضر . ولكن السلطات المدنية في الأمم التي تحتل مركز الصدارة في العالم قد نجحت نجاحاً كبيراً في السيطرة على الاجهزة العسكرية .

عندما ازمع لينكولن تعيين قائد عام على القوات الشمالية في الحرب الأهلية الأمريكية حذره البعض من أن مرشحه سيسعى لاقامة ديكتاتورية . فكتب لينكولن اليه معبرا عن هذه المخاوف وأضاف :

« ان السبيل لاقامة ديكتاتورية هو تحقيق الانتصارات . سأطلع اليك من أجل تحقيق الانتصارات وسأجازف بالديكتاتورية .
وإثبتت الحوادث حكمة هذا القرار .

وفي الصراع الذي نتب في انجلترا حول قانون الاصلاح (١) ، كان ولنجتون مندفعاً بعواطفه في معارضة هذا الاصلاح . ولكنه على الرغم من شهرته العريضة لم يخطر على باله قط أن يقود الجيش ضد البرلمان .

وفي روسيا عندما قلب ستالين ظهر المجن لمجموعة من الجنرالات لم يجد صعوبة في اعدامهم والاجهاز عليهم .

ليس هذا اذن سبب يدعو الى افتراض ان السيطرة على القوة العسكرية في ظل حكومة عالية ستكون أكثر صعوبة منها في ظل الحكومات القومية . وهذا خطراً لا بد للحكومة المدنية أن تلتبه اليه . ولكن ليس هناك سبب يدعو للاعتقاد بأن الطرق التي ستستحدث لمحاربة هذا الخطر سيكتب لها نجاح اقل من النجاح الذي ثبت ان الدول الكبرى في يومنا الحاضر قد حققتة .

الخوف كمصدر للتماسك الاجتماعي

هناك عائق نفسى خطير بعض الشيء يعترض سبيل انشاء حكومة عالمية ، وفحواه أنه لن يكون هناك عدو خارجي يبعث على خوف .

فالتماسك الاجتماعي ، في الحدود التي يكون فيها غريزيا ، يشجعه أساسا الاحساس بالخطر المشترك أو العداء المشترك . وهذا أكثر ما يكون وضوحا عندما يعهد الى شخص راشد برعاية مجموعة من الاطفال الأشقياء الذين لا ينصاعون لأمر . وطالما ان كل شيء يسوده الهدوء ، فمن الصعب حمل الاطفال على الطاعة . ولكن اذا حدث ما يخيف كعاصفة راعدة ، أو هجوم كلب مفترس ، فسيبحث الاطفال لتوهم عن شخص كبير يحتمون به ويطيعون أوامره بحذافيرها .

(١) قانون الاصلاح صدر في انجلترا عام ١٨٣٢ ، وبصدوره قطعت انجلترا شوطا كبيرا على طريق الديمقراطية .

(المترجم)

وينطبق نفس هذا المبدأ على الكبار ، وإن لم يكن الأمر في حالتهم بمثل هذا الوضوح ، فالوطنية تكون أشد تأججا بكثير في وقت الحرب منها في أى وقت آخر ، كما أنه يوجد في ذلك الوقت استعداد واضح للانصياع حتى للمراسيم الحكومية الكريهة ، هذه الطاعة لا تقوم لها قائمة إذا كان السلام مستقرا .

ولن يكون في إمكان الحكومة العالمية أن تستثير مثل هذا الدافع « للولاء » ، نظرا لأنها لن تجابه عداوة انسانية من الخارج (١) . واعتقد أنه سيكون من الضروري ، كجزء هام من نظام التعليم تذكري الناس بالآخطار التي ستستمر في تهديدهم مثل الفقر وسوء التغذية والأوبئة، كما أنه سيكون من الضروري تنبيههم كذلك الى أن فشلهم في الولاء للحكومة العالمية معناه أن الحرب العالمة قد تصبح محتملة مرة أخرى.

التعليم

على الرغم من أن كراهية الدول الخارجية تساعد على التماسك الاجتماعي في يسر لعله يفوق التماسك الاجتماعي الناجم عن أى عامل آخر ، إلا أن الافتراض بأن شيئا أكثر ايجابية وأكثر جدوى لا يمكن أن يحل محل هذه الكراهية ضرب من التقائهم لا موجب له . فهذه المسألة بأسرها تعتمد على التعليم أكثر من أى شيء آخر .

لقد وفرت كل التطورات الفنية منذ الثورة الصناعية أسباب الزيادة في حجم الدول . وبما أن كوكبنا محدود الحجم فهذه الأسباب الفنية تقودنا بقوة شديدة نحو إقامة حكومة موحدة للعالم بأسره .

كان حجم الدول فيما مضى يحدده أساسا التوازن بين قوتين منعارضتين . فمن ناحية نرى حب القوة والسلطان من جانب الحكومة ، ومن ناحية أخرى نجد حب الاستقلال من جانب المحكومين . والنقطة التي تجد فيها هاتان القوتان نفسيهما في حالة توازن في أية مرحلة من التطور تعتمد أساسا على التكنولوجيا (أو أسلوب الإنتاج) السائد .

والزيادة في سهولة النقل والتحريك ، وفي أسعار الأسلحة تجعل الوحدات الحكومية تميل لان تكون أكبر حجما . وعندما تكون الأسلحة رخيصة والانتقال بطيئا ، تميل الوحدة الحكومية المتسعة الرقعة الى عدم الاستقرار حينما تواجه بورة داخلية ، ولهذا السبب فهناك بوجه

(١) عاليج برتراند راسل العلاقة بين الخوف والتماسك الاجتماعي باستفاضة في كتابه « السلطة والفرد » .

(المترجم)

عام انجاء في الدول الى النمو في الحجم كلما درجت على سلم المدنية ،
وان تصغر كلما كانت المدنية في حالة تدهور .

واختراع البارود لم يزد في حجم الدول فحسب ، ولكنه زاد
ايضا من قوة الحكومة المركزية ، في كل دولة . ولكنه على كل حال لم
يخلق الظروف الفنية التي ينبغي توافرها لاقامة حكومة عالمية ، فهذه
الظروف لم تنشأ الا في وقتنا الحاضر .

تجديدات

كانت اول خطوة هامة هي ابراق الانباء وسرعة نقلها . وقد لعبت
السكة الحديد دورا هاما للغاية . واظن ان المرء يستطيع أن يفترض
انه لو كان نابليون يمتلك سكة حديد لتمكن من هزم روسيا عام ١٨١٢ .

ولكن التغيرات التي حدثت في القرن الذي نعيش فيه اهم بكثير
من السكة الحديد والتلغراف : اعنى بهذا الانتصار على الفضاء (١) :
واهم من ذلك اختراع الاسلحة النووية . ورغم أن هذا التقدم الفني
قد جعل الفوضى الدولية الراهنة اخطر بكثير جدا عما كانت عليه في أي
وقت مضى ، الا انه قد جعل ايضا في الامكان من الناحية الفنية اقامة
حكومة عالمية يمكنها ان تباشر سلطانها في كل مكان وأن نجعل المقايضة
الاسلحة ضدها أمرا مستحيلا بالفعل .

ويرجع هذا الموقف الجديد أساسا الى ثلاثة ابتكارات علمية :
أولها وأهمها جميعا القدرة الهائلة على التدمير السلي للأسلحة النووية
الحديثة . وبانيتها السرعة الفائقة التي ستمتدع بها هذه الاسلحة
الوصول الى أهدافها . أما التجديد السالب فهو تكاليفها الباهظة . كل
هذه التجديدات تزيد من امكانية التضخم في حجم الدولة المستقرة .
وحنى يومنا الحاضر ، فان امكانية التمدد في الحجم قاصرة على سطح
الارض ولكنها قد تمتد الى القمر والكواكب بأسرع مما نتصور .

هذه امكانيات ، ولكنها لن تنجح الا اذا لم يدمر الجنس البشري
نفسه باستمساكه بقوالب سياسية جعلتها الاسلحة الحديثة عتيقة
بالية . واذا قدر لحكومة عالمية أن تعمل في سهولة ويسر فلا بد من تحقيق
شروط اقتصادية معينة ومن بين هذه الشروط ما بدأ يحظى باعتراف
شائع وهو رفع مستوى المعيشة في الدول المختلفة في الوقت الحاضر
حتى تصل الى المستوى الرغد السائد بين معظم السكان في الغرب .
وحتى يجرى اليوم الذي يتحقق فيه قدر معين من المساواة الاقتصادية في
مختلف أنحاء العالم . فستظل الامم الفقيرة تحمل الشعور بالحسد نحو
الامم الغنية ، وستحصى الامم الغنية أن ترتكب الامم الفقيرة أفعالا نتسم
بطابع العنف .

(١) الفضاء هنا ترجمة لكلمة air وليس لكلمة Space
(المترجم)

ولكن ليس هذا بأصعب اجراء اقتصادى قد تخضع الضرورة اتخاذه .
فهناك مواد خام مختلفة لازمة للصناعة . والبتترول فى الوقت الحاضر
من أهم هذه المواد . ومن المحتمل أن يصبح اليورانيوم ضروريا فى
الاستخدام الصناعى للطاقة النووية ، رغم أن الحاجة اليه لاغراض الحرب
سننعدم .

وليس من العدل أن نكون مثل هذه المواد الخام الضرورية ملكا
خاصا لاحد . وأعتقد انه يجب أن نعتبرها من ضمن الملكية الخاصة غير
المرغوب فيها لا الملكية الخاصة التى يمارسها أفراد أو شركات محاسب ،
بل تلك التى تباشرها أيضا دول منفصلة . وينبغى أن تصبح الموارد
الخام ، التى يستحيل أن تقوم الصناعة بدونها ، ملكا لسلطة عالمية
تمنحها للدول المنفصلة حسب مبدأ العدالة ، والقدرة على استعمالها .
والاسم الذى تفتقر الى هذه القدرة ينبغى أن تساعد على اكتسابها .

الحرية

فى عالم مستعمر كالذى نتصور قيامه ، من الممكن بشئى الطرق
تحقيق قدر أكبر بكثير من الحرية الموجودة حاليا . وستوضع على أية
حال بعض القيود الجديدة على الحرية حيث انه سيكون من الضرورى
غرس الولاء للحكومة العالمية ، وكبح جماح الاثارة والتحريض على الحرب
الذى تقوم به أمم بمفردها أو مجموعات من الامم .

وفى عدا الخضوع لهذا القيد ، ينبغى أن تتوفر حرية الصحافة ،
وحرية الكلام ، وحرية الاسفار ، كما ينبغى اجراء تغيير جذرى عميق فى
نظام التعليم .

وينبغى الاقلاع عن تلقين النشء الافراط والمبالغة فى تأكيد
حسنات أوطانهم دون سائر الاوطان . والشعور بالفخر بمواطنيتهم
الذين أظهروا أكبر مهارة فى قتل الاجانب ، وينبغى الاقلاع كذلك عن
حكمة مسنر بودسناپ التى تقول : « يؤسفنى أن أذكر أن الامم الاجنبية
تنتهج لنفسها منهجا فى الحياة يفاير منهجنا ودونه » .

وينبغى تعليم التاريخ من وجهة نظر دولية مع الاهتمام الضئيل
بالحروب ، والاهتمام الشديد بالانتصارات السلمية سواء فى مجالات
المعرفة أو الفنون أو الاستكشاف أو المغامرة . ولا ينبغى للحكومة العالمية
السماح للسلطات التعليمية فى أية دولة بالهاب الشعور بالتفوق على
دول العالم الاخرى ، أو التحريض على العصيان المسلح ضد الحكومة
العالمية .

وباستثناء هذه العيود ، ينبغى أن تتوفر فى نظم التعليم حرية
أكبر بكثير من الحرية القائمة فى الوقت الراهن ، وأن يتوفر التسامح
مع الآراء غير المستحبة وغير الشائعة بين المدرسين ما دام لبست من
النوع الذى سبب خطر الحرب ، كما ينبغى أن ينصب كل الاهتمام فى
سائر تعاليم التاريخ والمواد الاجتماعية « بالانسان » وليس بالامم المنردة
أو مجموعات الامم .

ان كلا من الافراد والجماعات يحرقها نوعان متعارضان من الحوافز أحدهما هو التعاون ، والاخر هو التنافس . وكل تقدم فى الوسائل العلمية يزيد من مجال التعاون المرغوب فيه كما يقلل من المنافسة المرغوب فيها . وأنا لا أعنى أن التنافس ينبغي أن يختفى كحافز ، ولكن ما أعنيه بالتأكيد ألا يتخذ التنافس صورة كالحافز الاذى بالغير على نطاق واسع ، وبخاصة فى صورة الحرب بالطبع .

ينبغي أن يكون أحد الاهداف التى يسعى التعليم الى تحقيقها هو نوعية النشء بامكانيات التعاون العالمى ، وخلق عادة التفكير فى مصالح الانسانية ككل . وينبغي أن يكون هناك ، كنتيجة لمنل هذا التعليم ، نمو عام فى مشاعر الصداقة والود ، مع الافلال من دعاية الكراهية التى تكون حتى الآن جانباً من التعليم الذى تقدمه الدولة فى معظم الاقطار .

المغامرة

من الناس من يشعر بأن العالم الذى يخلو من الحرب عالم يبعث على السأم والضجر . ويجب أن نعرف بأن كثيراً من الناس فى العالم ، كما هو قائم الآن ، يعيشون حياة محدودة الأبعاد ، خالية من عناصر التسلية ، وأن بعضهم يشعر بأنه يستطيع على أقل تقدير أن ينجز شيئاً على جانب من الأهمية ، ويتخلص من السأم والملل . فعندما ينقلون أنباء الحرب الى بلاد نائية تتاح لهم الفرصة لمشاهدة أساليب فى الحياة تغاير تلك التى ألفوها فى بلادهم . وفى اعتقادى أنه يجب توفير المغامرة ، حتى المغامرة التى تنطوى على الأخطار ، فى حياة من يرغبون فيها من الشباب .

ستتطلب مثل هذه المغامرة ، التى نقوم فى العادة على التعاون ، النظام والتعاون والاحساس بالمسئولية ، كما ستتطلب الطاعة أيضاً . وجميعها أمور لا يشتد عود الانسان كما ينبغي بدونها ، وهى نكون فى الوقت الحاضر أساس حب الانسان للحرب وينبغي توفير فرصة الالتحاق بالحملات العلمية التى تستهدف استكشاف منطقة القطب الشمالى ، ومنطقة القطب الجنوبى ، وجبال الهيمالايا ، وسلسلة جبال الأنديز فى أمريكا الجنوبية ، كما ينبغي توفير أسباب السفر الى الفضاء الذى أصبح وشيك التحقق لمن يتوق الى شيء على درجة أكبر من المخاطرة والمغامرة .

وعندما ينزاح عبء التسليح سيكون من الممكن توفير كل أسباب المغامرة التى يرغب فيها النشء المتململ البرم على نفقة الخزانة العامة مادامت لاتجلب الشقاء والمصائب فى أعقابها ، ولا تنطوى على المجازفة بنهاية الانسان كما هو الحال الآن .

آمال

فإذا قدر لخطر الحرب أن يزول ، فستجتاز الانسانية فترة انتقال ، نجد فى أثنائها أن أفكار الناس وعواطفهم لايزال يسيطر عليها الماضى الأهوج المضطرب . وفى خلال فترة الانتقال هذه ، لايمكن تحقيق كل مانصبو اليه من انتهاء خطر الحرب بصورة نهائية ، وسيستمر شعور التنافس المفرط ، ولن تكون الأجيال القادمة - على أقل تقدير -

لتلائم أفكارها مع العالم الجديد الذى سيكون فى طريقه الى الخلق والتكوين

وبينما يظل العمل من أجل إعادة تشكيل عقليته الناس على قدم وساق ، ستكون هناك حاجة الى مجهود من الجائز أن ينضم بعض القيود على الحرية حتى يتم اجراء التغييرات والملاءمة اللازمة . ولست أرى على أية حال استحالته نحقق هذه التغييرات فتسعة أعشار الطبيعة البشرية على أقل تقدير تعتمد على التربية ، والجزء العاشر منها فقط يعتمد على الوراثية . والجانب الذى يرجع الى التربية يمكن لنظام التعليم أن ينكسر بأمره . ومن المحتمل أن يثبت فى الوقت المناسب أن الجزء الوراثي نفسه سيخضع لأنزاع العلم فيه .

دعنا نفترض أنه قد أمكننا اجتياز فترة الانتقال بنجاح ، ولنسأل أنفسنا أى عالم هذا الذى نرجو امامته كنتيجة لذلك . وما مصير الفنون والآداب والعلوم فى مثل هذا العالم ؟

أرى أنه يمكننا أن نأمل فى أن التحرر من عبء الخوف ، الخوف الاقتصادي الخاص ، والخوف العام من الحرب ، سيجعل روح الانسان نحلق فوق مشارف علوية لم يقدر للانسان أن يحلم بها حتى الآن .

لقد كان مفدرا على الانسان حتى وقتنا الراهن أن يخيب رجاءه وأمله وخياله بسبب ضيق امكانياته . وقد ظل يرنو الى الخلاص من الخوف واضعا رجاءه فى حياة أخرى فى السماء . أو كما يقول المتدين الزنجي : «عندما أقفل راجعا الى بيتي سأخبر الرب بكل متاعبي» .

ولكن ليس هناك سبب يدعو لانتظار السماء . وليس هناك سبب يجعل الحياة على الأرض لا تزخر بالسعادة ، كما أنه ليس هناك سبب يدعو خيال الانسان لأن يلتجئ الى الأساطير . فمن الممكن أن تكون حياة الانسان ، فى العالم الذى يستطيع خلقه اذا شاء ، حياة خلافة منطلقة فى اطار وجودنا الأرضي .

لقد نمت المعارف فى العصرالحديث بسرعة فائقة للدرجة أن اكتسابها أصبح قاصرا على قلة ضئيلة من الخبراء ، يملك القليل منهم الطاقة أو القدرة على مزجها بالاحساس الشعري والبصيرة الكونية . فالنظام البطليموسى فى الفلك وجد أحسن تعبير شعري له فى دانتي ، وكان مقدرًا عليه من أجل ذلك أن ينتظر نحو ألف وخمسمائة عام .

التحرير

اننا نقاسى من العلم غير المهضوم . ولكن فى عالم يتيح تعليمه يتضمن درجة من المغامرة أكبر مما هي عليه الآن ، سيتمكن الانسان من أن يتمثل أكاداس العلوم غير المهضومة . وستتسع رحاب أشعارنا وفنوننا حتى تبلغ مشارف عوالم جديدة ، تجد لها تصويرا فى ملاحم جديدة . وقد يكون من المتوقع أن يقود تحرير روح الانسان الى بهاء جديد ، وجمال جديد ، وسناء جديد كان مستحيلا فى عالم الأمس الحبيس الضارى .

وإذا أمكننا الانتصار على متاعنا الحاضرة فسيستطيع الانسان أن يتطلع الى مستقبل يمتد الى مدى يتضاءل معه ماضيه ، مستقبل يستوحى رؤيا جديدة عريضة ، وأملا دائما تقليدية دوما انتصارات الانسان المستمرة .
لقد بدأ الانسان بداية تليق بطفل - لأن الانسان آخر الانواع ، لا يزال في المهد من الناحية البيولوجية . وليس هناك حد لما يمكنه تحقيقه في المستقبل .

وانى لأرى عندما أسرح بخيالي عالما من المجد والفرح ، عالما تنطلق فيه العقول . ولا تكتنف فيه الظلمات أمل الانسان ، عالما يبطل فيه دمغ النبيل ووصمه بأنه خيانة لهذا الغرض الخسيس أو ذاك الهدف الدنيء .
كل هذا يمكن أن يحدث اذا سمحنا له أن يحدث والأمر موكول لجيلنا لكي يختار بين هذه الرؤيا وبين فناء تسيطره غباوتنا .

الفصل الرابع

عظماء في حياة برتراند رسل

(١) هـ - ج - ويلز

H. G. Wells

قابلت هـ - ج - ويلز لأول مرة في عام ١٩٠٢ في جمعية صغيرة للمناقشة أنشأها سيدني ويب وأطلق عليها اسم « القواسم المشتركة » أملًا في أن نتعاون للعمل بكفاءة فيما بيننا . وكان عددنا حوالي اثني عشر عضواً .

لم أكن قد سمعت عن هـ - ج - ويلز مطلقاً حتى ذكره ويب على أنه رجل كان قد دعاه لكي يصبح « قاسماً مشتركاً » وأخبرني ويب أن ويلز شاب كان يكتب في ذلك الوقت قصصاً على غرار جول فيرن . ولكنه كان يأمل عندما يذيع اسمه ويجمع ثروة عن طريق قصصه هذه أن يقف حياته على عمل أكثر جدية . وسرعان ما وجدت أنني كنت مختلفاً أشد الاختلاف مع معظم « العوامل المشتركة » بدرجة لا يمكنني معها الاستفادة من المناقشات أو إضافة أي شيء مفيد إليها . وكان سائر الأعضاء ماعداً ويلز وأنا استعماريين كما كانوا يتطلعون دون أن يصيبهم كثير من الجزع إلى حرب مع ألمانيا . واستهوانى ويلز بسبب كراهيتنا المشتركة لوجهة النظر هذه . وكان ويلز يدين بالباديء الاشتراكية ويعتبر حينذاك - وأن كان قد تغير فيما بعد - أن الحروب حماقة وجنون . وتأزمت الأمور عندما دافع السير ادوارد جراي الذي كان في المعارضة - عما أصاب سياسة الدول الصديقة آنذاك مع فرنسا وروسيا ، تلك السياسة التي تبنتها حكومة المحافظين بعد خرابة عامين والتي دعمها ومكن لها السير ادوارد جراي عندما أصبح وزيراً للخارجية . وتحدثت مندداً في عنف ضد هذه السياسة التي شعرت أنها تفضي مباشرة إلى حرب عالمية ولكن الجميع باستثناء ويلز اختلفوا معي في الرأي .

وكانت نتيجة التعاطف السياسي بيننا اثني دعوت ويلز ومسز ويلز ليزوراني في باجلى وود بالقرب من اكسفورد حيث كنت أقطن في ذلك الوقت . ولم تكن الزيارة ناجحة تماماً .

اتهم ويلز زوجته في وجودنا بأنها تتكلم بلهجة العوام من أهل لندن وهو اتهام (فيما بدا لي) يمكن أن يوجه اليه عن جدارة واستحقاق أكبر . وهناك مسألة أجل شأننا نشأت عن كتاب كان قد كتبه مؤخرًا بعنوان « في أيام المذنب » (١) ويروى هذا الكتاب أن الأرض تخترق ذيل مذنب يحتوى على غاز من شأنه أن يجعل كل انسان عاقلا . ويوضح الكتاب انتصار العقل والاعتزان بطريقتين . ان حربا مستعرة - كانت تدور رحاها بين انجلترا وألمانيا - تتوقف بالاتفاق المتبادل ، وان كل انسان ينغمس ويستغرق في حب منطلق من كل القيود . وشنت الصحافة هجوما على ويلز لا لدفاعه عن السلام وانهاء الحرب ولكن لدفاعه عن الحب الطليق . فرد بنوع من الحرارة والحماسة أنه لم يدافع عن الحب المنطلق ولكنه مجرد انه تنبأ بنتائج ممكنة الحدوث لوجود عناصر جديدة داخلية في تركيب الجودون أن يذكر اذا كان يستحسن هذه النتائج أم يستهجنها . وبدا لي هذا تلاعبا واحتيالا . وسألته : لماذا دافعت عن الحب بلا قيود بادىء الامر ثم تراجع بعد ذلك ؟ فأجاب بقوله أنه لم يكن قد اقتصد بعد من حقوق التأليف والنشر ما يكفيه من مال حتى يمكنه أن يعيش على ريعها وأنه لا يعتزم أن يجهر بدفاعه عن الحب المنطلق قبل أن يتم له ذلك . . . وكنت في تلك الايام متشددا ، من غير داع فأسأت هذه الاجابة الى .

وبعد ذلك لم ألتق به الا لما انتهت الحرب العالمية الاولى . وعلى الرغم من موقفه السابق من الحرب مع ألمانيا فقد أصبح في عام ١٩١٤ مؤيدا للحرب مناديا بالقتال بشكل مفرط . واستحدث عبارة « شن حرب لانهاء الحرب » . وقال انه « متحمس لهذه الحرب ضد الروح العسكرية البروسية » . وأعلن في أيام الحرب الاولى المبكرة أن الجهاز العسكري البروسي برمته قد أصابه الشلل أمام حصون ليبج التي سقطت متهاوية بعد يوم أو يومين فيما بعد . ورغم أن سيدنى ويب كان متفقا مع رأى ويلز في الحرب الا أن علاقته الودية به كانت قد توقفت بسبب عدم رضائه عنه من الناحية الاخلاقية من جانب . وبسبب قيام ويلز بحملة شائكة ضده حتى ينتزع منه زعامة الجمعية الغابية من جانب آخر . وقد عبر ويلز عن عداوته لعائلة ويب في قصص طويلة عديدة . ولم تهدأ ثائرة هذا العداء ابدا .

وبعد انتهاء الحرب الاولى أصبحت علاقتي بويلز للمرة الثانية أكثر ودا وتوطدا . وكنت أحمل الإعجاب لكتابه « مجمل التاريخ » (٢) وخاصة الاجزاء الاولى منه . والفيت نفسى متفقا مع آرائه في طائفة كبيرة من الموضوعات . لقد كان يحمل بين جنبه طاقة وقدرة على تنظيم كميات

(١) In the days of the Comet

(٢) Outline of History

ضخمة من المواد . كانت عيناه تلمعان ببريق خاطف ، وكان المتحدث معه يحس خلال النقاش معه أنه كان يهتم بفحوى النقاش اهتماما موضوعيا أكثر من اهتمامه الشخصى بمن يجاذبه أطراف الحديث . وكانت عادتي أن أزوره في عطلات نهاية الاسبوع في منزله في اسكن حيث كان يرافق ضيوفه في عصر أيام الاحاد لزيارة جاريته الليدى وارويك .

وأهمية ويلز ناشئة من الكم في الانتاج أكثر من الكيف . ولكن يجب على الانسان أن يعترف بأنه كان متفوقا في بعض انواع انتاجه . فقد كان يجيد للغاية تصور سلوك الجماهير الجماعى في ظروف غير معتادة كما هو الحال مثلا في « حرب العوالم ١ » وتصف بعض قصصه الطويلة بطريقة مقنعة أبطلالا لا يختلفون عنه شخصا . وهو من الناحية السياسية واحد من الذين جعلوا الاشتراكية مذهبا له وزنه واحترامه في إنجلترا وكان له تأثير كبير للغاية على الجيل الذى تلاه لا من الناحية السياسية فحسب بل في مسائل الاخلاقيات الشخصية . وكانت معلوماته مترامية الاطراف وان لم تكن تتسم بالعمق فى أى من المواضيع ، وكانت له على كل حال بعض الاخطاء التى انتقصت نوعا ما من قدره كحكيم فقد كان يجد أن أعراض الناس عنه أمر لا يطاق وكان يتنازل عن أشياء أمام للصيحات الشعبية المتعالية مما كان ينتقص من الانسجام والتماسك في تعاليمه . وحينما أصابه الانزعاج والقلق بسبب اتهامات الانحلال والخيانة الجنسية التى وجهت اليه شاء أن يكتب قصصا من الدرجة الثانية بعض التواء يهدف من ورائها الى أن ينفي مثل هذه الاتهامات عن نفسه « كروچ اسقف » (٢) أو قصة الزوج والزوجة اللذين يشرعان في العراك والتشاحن ويقضيان الشتاء في لابرادور حتى يضعوا حدا لهذا التشاجر ثم يصفو الجو بينهما بسبب معركة يخوضانها سويا ضد هجمة دب ، وفي آخر مرة رأيته فيها وكانت قبل وفاته بوقت قصير تحدث في جدية تامة عن الاضرار الناشئة عن الانقسامات في جبهة اليسار ، وفهمت - رغم أنه لم يقل هذا صراحة - انه يعتقد أنه يجب على الاشتراكيين أن يزيدوا من تعاونهم مع الشيوعيين أكثر مما كانوا يفعلون . ولم يكن هذا رأيه وهو في قمة قوته وذروة نشاطه عندما اعتاد أن يسخر من لحية ماركس ويحث الناس على عدم تبني أصول الماركسية الجديدة .

وتتلخص أهمية ويلز أساسا في أنه محرر للفكر والخيال . فقد كان قادرا على بناء صور لمجتمعات ممكنة بطريقة وضاعة هادئة للغاية أحيانا . وقصته « بلد العميان ٣١ » أن هى الا قصة الكهف الرمزية عند

The War of the worlds	(١)
The Soul of a Bishop.	(٢)
The country of the blind	(٣)

أفلاطون في لغة عصرية وقال متشائم بعض الشيء . وكان يقصد من « مدنه المثلى » - رغم انها ليست راسخة في حد ذاتها - إثارة سلسلة من الأفكار قد يثبت جدواها . وهو عقلى دائما ويتجنب صور الخزعبلات المختلفة التي يتعرض عقل الانسان الحديث للانزلاق فيها . وإيمانه بالمنهج العلمى إيمان صحيح ويبعث على القوة . ورغم أن تفاؤله يصعب التمسك به نظرا لحالة العالم الراهنة إلا أنه من المحتمل جدا أن يقود الى نتائج طيبة أكثر مما يقودنا اليها التساؤل المتراخى الكسول بعض الشيء الذى أصبح شائعا فى كل مكان أكثر مما يشبه . وعلى الرغم من بعض التحفظات فأنى أعتقد أنه يمكن لنا اعتبار ويلز كقوة هامة تدفع الى التفكير العاقل البناء فيما يتعلق بالانظمة الاجتماعية والعلاقات الشخصية على حد سواء . وأمل أن يجيء بعده من يخلفونه ولو أتى لا أعرف فى الوقت الراهن من سيكونون له خلفاء .

(٢) د . ه . لورنس D. H. Lawrence

كانت معرفتي بلورنس قصيرة ومضطربة ، دامت في مجموعها ما يقرب من عام . وقد جمعنا معا الليدى « اتولين مورل » التى كانت تكن لكلينا الاعجاب والتى جعلتنا نعتقد انه ينبغي علينا (لورنس وأنا) أن نتبادل الاعجاب . كانت الدعوة الى السلام قد ولدت في نفسى شعورا بالثورة المريرة ، ووجدت فى لورنس ثورة عارمة كالتى كانت تعمل فى صدرى ، مما جعلنا نظن بادى الامر أن هناك وشائج كثيرة من الوفاق الفكرى تربط الواحد منا بالآخر . وقد تبينا فيما بعد ، أن شقة الخلاف التى تفصل بيننا أبعد من خلاف أى منا مع امبراطور ألمانيا .

وكان يتنازع وجدان لورنس حينذاك موقفان من الحرب : فمن ناحية ، لم يكن فى وسعه أن يكون وطنيا بكل جوارحه لان زوجته كانت المانية . ومن ناحية أخرى بلغت كراهيته للانسانية حدا جعله يميل الى التفكير أن كلا الجانبين لابد أن يكون على صواب فى الكراهية التى يحملها كل منهما للآخر . وعندما تكشف لى هذان الموقفان ، ايقنت أنه لا يمكن لى أن أعطف على أى موقف منهما . ولكن ادراكنا لأوجه الخلاف بيننا كان بالتدريج على أية حال ، واستمرت علاقتنا فى بادى الامر سعيدة مرحلة كأجراس العرس . ودعوته لزيارتي فى كامبريدج حيث قمت بتقديمه الى كنيس Keynes والى عدد اخر من الناس . ولكنه قابلهم جميعا بروح الكراهية ، ووصفهم جميعا بانهم « موتى ، موتى ، موتى » . وظلت فترة من الزمن اعتقد أنه من الجائز أن يكون على صواب ، فقد أحببت عواطف لورنس المتقدة ، كما أحببت فيه الايمان بحاجة العالم الى شيء جوهرى للغاية ، لاصلاح شأنه . وكنت متفقا معه فى التفكير فى استحالة فصل السياسة عن النفسية الفردية ، وأشعر أنه رجل تتسم عقيرته الأكيدة بالخيال . وفى البدء عندما كنت اميل الى الاختلاف معه ، كنت أظن أن بصيرته النفاذة فى ادراك الطبيعة البشرية تفوق بصيرتى عمقا . ولم يصل الحال بى أن أشعر بقوة الايجابية على الشر الا بالتدريج ، وانتهى الامر بأنه أصبح يشعر بحوى بمثل الذى كنت أشعر به نحوه .

كنت فى ذلك الوقت منصرفا الى تحضير سلسلة من المحاضرات التى نشرت فيما بعد بعنوان « مبادئ إعادة البناء الاجتماعى (١) » وكان هو أيضا يرغب فىلقاء المحاضرات ، وبدأ لى حينذاك أنه من الممكن أن ينشأ بيننا نوع من التعاون الخفيف . وتبادلنا عدد من الرسائل اضعاف هو ما أرسلته اليه ، ولكن رسائله رأت طريقها الى النشر .

ومن الممكن لمن يتتبع رسائله أن يدرك تدريجاً شعوراً بخلافاتنا الجوهرية، فقد كنت شديد الإيمان بالديموقراطية ، في حين أنه استولد كل الفلسفة الفاشية قبل أن يفكر رجال السياسة فيها . وكتب يقول : اننى لا أؤمن بالسيطرة الديموقراطية . وفى رأى أن العامل يصلح لانتخاب حكام ورؤساء لخدمة احتياجاته المباشرة فقط . لا بد أن تعيدوا النظر كلية فى نظام الناخبين بحيث يحق للعامل انتخاب رؤساء للامور التى تعنيه مباشرة ، وبحيث يتم انتخاب السلطة العليا من الطبقات الأخرى الناهضة . ويجب أن يتبلور النظام الاجتماعى فى آخر الأمر فى رأس واحد كما هو الحال فى كل كائن حى - لا جمهوريات سخيفة يرأسها رؤساء جمهوريات سخفاء بل ملك منتخب ، شئ أشبه مايكون بيوليوس قيصر » . وهو بطبيعة الحال يفترض فى تصورات أنه سيصبح يوليوس قيصر المنتظر هئذ أرساء أسس النظام الديكتاتورى . وكان هذا جانباً من طبيعة تفكيره الحالم الذى لم يسمح له بالنزول الى الواقع أبداً . وكان ينفجر فى خطب هجومية طويلة ، متحمسة يعلن فيها ضرورة اذاعة الحقيقة على الجماهير . ويبدو أن الشك لم يتطرق اليه فى أن الجماهير ستتصت اليه . وسألته عن الأسلوب الذى يعترم أتباعه فى هذا الصدد . هل سينشر كتاباً يتضمن فلسفته السياسية ؟ فكان جوابه بالنفى « لا ، فالكلمة المكتوبة فى مجتمعنا الفاسد تبدو اكذوبة دائماً » . وعندما سألته ، اذا كان سيذهب الى هايد بارك ليعلم الحقيقة من فوق صندوق للصابون ، أجاب بالنفى أيضاً « لا فسيكون هذا أخطر مما ينبغى » . (وكانت تصدر عنه من وقت لآخر دلائل الحيلة والحصافة) وكلما سألته عما عساه أن يفعل ، كان يعمد الى تغيير الموضوع .

واكتشفت بالتدريج أن رغبته فى خلق عالم أسعد لم تكن صادقة ، وأنه يرغب فقط فى أن يدخل فى مناجاة بليغة مع نفسه حول فساد هذا العالم . فاذا ترامت هذه المناجاة الى مسامع أحد ، كان خيراً وبركة . ولكنه كان يقصد بها على أحسن تقدير خلق نفر قليل من التلاميذ والمريدين المخلصين الذين يستطيعون أن يعيشوا فى صحراء « نيومكسيكو » ويشعروا بقدسيته . وقد نقل لورنس كل هذا الى لغة الدكتاتور الفاشستى محدداً ما ينبغى على أن أبشر به ، مؤكداً إياه فى الحاح وأصرار .

وأصبحت رسائله أكثر عداوة عن ذى قبل فقد كتب الى قائلاً « ما الفائدة فى أن تحيا على هذا النحو على أية حال ؟ اننى لا أعتقد أن محاضراتك حسنة ، لقد أوشكت محاضراتك على الانتهاء ، اليس كذلك؟ ماجدوى الالتصاق بالسفينة الملعونة ومخاطبة الحجاج التجار بلغتهم الخاصة ؟ لماذا لا تلقى بنفسك من سطح السفينة الى عرض البحر ؟ لماذا لا تخرج تماماً من الاستعراض كله ؟ لا بد للانسان أن يكون خارجاً على العانون فى هذه الايام لا معلماً أو مبشراً » . وقد بدا لى أن هذا لا يعدو أن يكون مجرد خطابة ، فقد أصبحت خارجاً على القانون أكثر

هما كان هو عليه في آية فترة في حياته . ولم استطع أن اتبين بالضبط سبب شكواه منى . وقد دأب على صياغة شكواه في أساليب مختلفة في أوقات مختلفة . وفي مناسبة أخرى كتب يقول « توقف عن العمل والكتابة تماما ، وكن دائما كائنا حيا بدلا من أن تكون آلة ميكانيكية . ابتعد تماما عن السفينة الاجتماعية كلها ، وكن مجرد لا شيء صونا لسكربائك : كن كالخلد كائنا حيا يشعر ولا يفكر . ولتكن من أجل السماء طفلا ، ولا تكن عالما بعد الآن . لا تفعل أى شيء أكثر من هذا -- ولكنى أستحلفك بالسموات أن تبدأ فى أن تكون . أبدأ من أول الطريق وكن باسم الشجاعة طفلا كاملا » .

« اه انى أريد أن أطلب منك عند كتابتك لوصيتك أن تترك لى من المال مايكفى لان أعيش به . وانى أرجو لك أن تعيش الى الابد ولكنى أريد منك أن تجعلنى وريثا جزئيا لك » والصعوبة الوحيدة التى تعترض هذا الطلب هى أننى لو قمت بتنفيذه ، لما وجدت شيئا أورثه بعد وفاتى .

وكانت له فلسفة في « الدم » تصوفية تثير كراهيتى . فقد قال : « هناك مركز آخر للشعور غير المخ والأعصاب » .

هناك شعور بالدم موجود فينا ومنفصل عن الشعور الدهنى العادى . فالإنسان يعيش ويعرف وله كينونته فى الدم دون أن تكون هناك أية صلة بالأعصاب والمخ . وهذا يكون نصف الحياة التى تنتمى الى الظلام . فعندما أفاشر امرأة ، يسود مبدأ الدم كل شيء ومعرفتى التى استمدتها عن طريق الدم تطفى على كل شيء . وينبقى علينا أن ندرك أن لنا وجودا فى الدم ، وشعورا فى الدم ، وروحا فى الدم كاملا ومنفصلا عن أى شعور ذهنى وعصبى . وبصراحة ، بدا لى أن هذا لغو أجوف ورفضته بشدة . ولم أكن أتخيل حينذاك أن هذه الفلسفة ستفضى الى معتقل أستوتشمن (١) على الفور .

وحين اعترضت على الحرب بسبب ويلاتها اتهمنى بالنفاق وقال : « ليس من الحقيقة فى شيء أنك - أنت ونفسك الاصيله - تريد السلام . أنك ترضى شهوتك للاضراب والمشاكسة بطريقة زائفة غير مباشرة . فاما ان ترضيها بطريقة مباشرة شريفة ، وتقول « اننى اكرهكم جميعا ايها الكلبة والخنازير وهانذا خارج لاتبرى للهجوم عليكم أو أن تتمسك بالرياضيات حيث تستطيع ان تكون صادقا ، وأميناً . اما أن تظهر بمظهر ملاك السلام ، فلا . وانا افضل ألف مرة أن يلعب أمير البحر تيرتيز (٢) هذا الدور » . اننى أجد صعوبة الآن فى فهم الاثر المخرب

-
- (١) Auschwitz معسكر اعتقال نازى معروف
(٢) Tirpitz ادميرال فى البحرية الالمانية فى الحرب الاولى .

الهدام الذي تركه هذا الخطاب في نفسي . وكنت أميل الى الاعتقاد بأنه-
يمتاز بنوع من البصيرة التي لم تتوفر لي . وعندما قال لي أن دعوتي
للسلام تستمد جذورها من شهوة دموية ، افترضت أنه لا بد مصيب
فيما يقول وظلمت أفكر مدة أربع وعشرين ساعة في أنني لا أصلح للحياة،
وفكرت في الانتحار . ولكن رد فعل أكثر صحة تغلب على هذا التفكير في
نهاية هذه المدة ، وقررت أن أنفض عن نفسي مثل هذه الافكار المريضة .
وعندما قال لي أنه يجب على أن أبشر بمبادئه ، ولا بمبادئ ثرت في وجهه
وذكرته أنه لم يعد مدرسا وأنني لست تلميذا له . لقد كتب يقول :-
« انك عدو الانسانية بأسرها ، مفعم بشهوة العداوة والكراهية » وأنت
لا تستلهم كراهية الزيف بل تستوحى كراهيتك الناس الذين يتدفق
الدم في عروقهم وأجسادهم حارا . وما هذه الكراهية الا شهوة دم،
ذهنية منحرفة ، لماذا لا تعرف بهذا ؟ واستمر لبضعة أشهر ، يكتب لي
خطابات تحوى من شعور المودة والصدقة ما يكفي لاستمرارنا في
التراسل . ولكن علاقتنا أصابها الفتور في نهاية الامر ، وذوت دون أية
خاتمة درامية ، والذي جذبني الى لورنس في بادىء الامر صفة ديناميكية.
اكيدة كانت تميزه ، وعادته في تحدى الافتراضات التي يتقبلها الانسان.
على أنها مسلمات لا يرقى اليها الشك . وكنت حينذاك قد اعتدت أن
أهم بعبوديتي المفرطة للعقل ، واعتقدت أنه ربما يستطيع أن يعطيني
جرعة منعشة من اللا عقل . ولا شك أنني اكتسبت منه منبهات وحافزا
وأظن أن الكتاب الذي كتبته رغم ريح هجومه العاتية ، أفضل نوعا مما
لو كنت قد كتبته بدون أن أعرفه .

وهذا لا يعنى أن هناك شيئا حسنا في أفكاره . وأنا لا أعتقد
عندما أعود بذاكرتي الى الوراء أن أفكاره كانت تمتاز بشيء أكثر من
أفكار ديكتاتور للمستقبل مستبد ، حساس كان يصب غضبه على العالم.
لأنه يرفض أن يطيعه على الفور . وعندما أدرك أنه لا يعيش بمفرده
في هذا الكون ، كره الناس ، ولكنه كان يعيش معظم الوقت منطويا
على نفسه في عالم من صنع خياله ممتلئ بأطياف عنيفة كما شاء لها
أن تكون . ويرجع تأكيد المفرط للجنس الى أنه في الجنس وحده كان
مضطرا للاعتراف بأنه لم يكن الانسان الوحيد الموجود في الكون . ولأن
هذا الاعتراف كان أليما على نفسه ، دعاه هذا لأن يرى أن العلاقات
الجنسية قتال دائم يسعى كل جانب فيه الى تدمير الجانب الآخر .

لقد كان العالم في فترة ما بين الحربين ينحرف نحو الجنون .
وكانت النازية أصدق تعبير عن هذا الانحراف ، وكان لورنس المدافع
المناسب عن مذهب الجنون هذا ، ولست على يقين من أن عقل ستالين،
السليم البارد غير الانساني كان أحسن حالا .

(٣) جورج برناردشو George Bernard Shaw

يمكن تقسيم حياة برناردشو المديدة الى ثلاث مراحل . المرحلة الاولى حتى سن الاربعين ، وكان معروفا فيها كناقذ موسيقى ، وعضو مجادل في الجمعية الاشتراكية الفابية (١) وروائي جدير بالاعجاب ، وصاحب نكتة ذات خطر ضد الزيف والادعاء ثم كانت المرحلة الثانية ككاتب هزلى . وفي مبدأ الامر لم ينجح في أن تمثل مسرحياته على خشبة المسرح لانها لم تكن تشبه تماما مسرحيات بنيرو Pinero حتى أدرك مديرو المسارح أخيرا أنها مسلية فأصابت نجاحا عن جدارة واستحقاق . واعتقد أن الأمل كان يراوده طيلة حياته الاولى في أن يتمكن من تأدية رسالته الجادة بصورة فعالة بعد أن يتحقق له اجتذاب النظارة اليه كمضحك . ولهذا فقد ظهر في مرحلته الثالثة والاخيرة ككاتب يدعو الى الاعجاب بكل من القديسة جان دارك الاتية من أورليانز والقديس جوزيف الاتي (٢) من موسكو . لقد عرفته في كل هذه المراحل الثلاث ورأيت أنه كان في المرحلتين الاولى والثانية ممتعا ومفيدا - ولكنني وجدت على كل حال أن اعجابي به في المرحلة الثالثة كان محدودا .

وسمعت عنه لأول مرة في عام ١٨٩٠ عندما قابلت وأنا طالب مستجد في الجامعة طالبا مستجدا آخر كان معجبا بكتابه خلاصة الابسنية (٣) . ولكنني لم أقابله حتى عام ١٨٩٦ عندما اشترك في مؤتمر اشتراكي دولي عقد في لندن . وكنت أعرف عددا كبيرا من المندوبين الالمان نظرا لاني قد درست الحركة الديموقراطية الاشتراكية الالمانية . وكانوا ينظرون الى شو على أنه تجسيد للشيطان لأنه لم يكن في وسعه مقاومة اللذة التي يحس بها عندما يزداد النزاع الناشب تطورا ، ولكنني على كل حال استمددت رأيي فيه من عائلة سيدني ويب وأعجبت بمقاله الاشتراكي الفابي الذي حاول فيه تنحية الاشتراكية البريطانية بعيدا عن تأثير ماركس . وكان لا يزال حتى ذلك الوقت خجولا . وفي رأيي انه كان يتسلح في واقع الامر بنكاته مثله في ذلك مثل الكثيرين من أهل الدعاية المشهورين كنوع من الدفاع ضد السخرية والهجوم الذي يتوقعه ، وفي هذا الوقت كان قد بدأ لتوه في كتابة المسرحيات وجاء الى شفتي ليقرا إحدى هذه المسرحيات على جمع صغير من الاصدقاء . . كان الاصفرار يعلو وجهه كما كانت أوصاله ترتعش من فرط الاضطراب . وبدأ أبعد ما يكون عن الشخص الفظيع المروع الذي تحول اليه فيما بعد . وبعد ذلك بوقت

(١) Fabian نسبة الى الجمعية الفابية في إنجلترا التي كانت تنادى بالاشتراكية السلمية على عكس اشتراكية ماركس الثورية .
(٢) يقصد راسل ساخرا جوزيف ستالين بطبيعة الحال .

(٣) The quintessence of Ibsenism

مقصّر مكتنا سويا مع عائلة سيدنى ويب فى مونموثشير انصرف خلالها الى تعلم فن التأليف الدرامى - فكان يكتب كل أسماء أشخاص مسرحيته على مربعات صغيرة من الورق وعندما كان يؤلف منظرا مسرحيا كان يضع على لوحة شطرنج أمامه أسماء الشخصيات التى تظهر على خشبة المسرح فى ذلك المنظر .

وفى هذا الوقت وقعت لكلينا حادثة دراجة خشيت لحظتها انها قد تعجل بمستقبله . كان حينذاك قد بدأ يتعلم ركوب الدراجة فارتطم بدراجتى بقوة عظيمة اطاحت به فى الهواء والقتة على ظهره على مسافة عشرين قدما من مكان الاصطدام . ولكنه نهض على أية حال دون أن يصيبه أذى على الاطلاق . واستمر فى ركوب دراجته بينما تحطمت دراجتى مما اضطررنى الى العودة بالقطار . وكان قطارا بطيئا للغاية وفى كل محطة كان يظهر بدراجته على الرصيف ويدخل رأسه داخل العربة مستهزئا . وانى أشك فى أنه كان يعتبر الحادث دليلا على فضيلة الحياة النباتية .

وكان تناول طعام الغداء مع مستر شو وزوجته فى أدلفى تراس Adelphi Terrace تجربة غريبة بعض الشيء . كانت مسز شو سيدة بيت على درجة عظيمة من الكفاءة وكان من عادتها أن تقدم الى شو وجبات نباتية للذيدة الطعم للغاية للدرجة أن الضيوف كانوا يتحسرون بشكل ظاهر على قائمة طعامهم التقليدية . ولم يكن فى مقدوره أن يقاوم ترديده المتكرر بعض الشيء لحكاياته الاثيرة اليه . وكلما عرض شو لخاله الذى انتحر بأن وضع رأسه فى حقيبة سفر مصنوعة من القماش ثم أغلقها عليها - بدت على وجه مسز شو علامات ضجر مروع للدرجة أن الجالس بجوارها كان يحرص على الانصراف من الاستماع لشو حتى لا يضايقها . ولكن هذا على كل حال لم يمنعها من اظهار الاهتمام به . وانى اذكر مادبة غداء حضرتها شاعرة شابة جميلة آملّة أن تقرأ قصائدها على شو . وعندما حان وقت انصرافنا وقمنا يتوديعه - أخبرنا شو أنها ستتخلف لهذا الغرض . ومع ذلك فقد وجدناها عند رحيلنا قد سبقتنا الى الباب الخارجى بعد أن نجحت مسز شو فى التخلص منها بطرق لم يكن من حظى أن الحظها . وعندما يلغنى بعد هذا بوقت غير طويل أن نفس هذه السيدة كانت قد هددت ويلز ببيع نفسها لانه رفض أن يستجيب لغرامها تزايد احترامى لمسز شو عن ذى قبل .

ولم يكن اهتمام زوجة شو به أمرا ذا بال فعندما أشرف وزوجته مع ويلز وزوجته على الثمانين جاءوا جميعا لرؤيتى فى بيتى فى سووث دونز - وكان للبيت برج يظل على منظر بديع للغاية . وارتقى جميعهم بالدرج لرؤيته - وكان شو أول الصاعدين ومسز شو آخرهم . وجاء

صوتها من أسفل طيلة الوقت الذى قضاه فى الصعود يناديه «ج.ب.س» لا تتحدث وأنت تصعد السلالم . ولكن نصحتها لم يأت بنتيجة على الإطلاق فقد انطلق منه فيض من الحديث لم ينقطع . وكان هجوم شو على الزيف والنفاق فى العصر الفيكتورى مفيدا كما كان ممثعا . ومن أجل هذا يدين له الانجليز بالفضل والعرفان بالجميل مافى ذلك شك . كانت محاولته اخفاء الغرور والزهو جزءا من الزيف الفيكتورى . وفى شبابى كنا جميعا نتظاهر بالتفكير فى اننا لا نفضل جيراننا . ووجد شو أن هذا الادعاء يبعث على الملل والسأم فتخلى عنه عند ظهوره للعا لم لأول مرة - لقد كان من عادة الناس الاذكياء أن يقولوا أن شو لم يكن مزهوا بنفسه بشكل غير عادى ولكنه كان صادقا وصريحا بصورة شاذة . وقد انتهيت فيما بعد الى التفكير فى بطلان هذا الزعم - فقد شاهدت بنفسى حادثين أقنعانى بهذا، وكانت اولاهما مأدبة غداء أقيمت فى لندن لتكريم برجسون ، كان شو قد دعى اليها بصفة كونه معجبا به مع عدد من الفلاسفة المحترفين الذين كانوا يقفون من برجسون موقف النقد . وبدأ شو فى عرض فلسفة برجسون والدفاع عنها بنفس الاسلوب الذى كتب به مقدمة متوشالغ (١) وكان من الصعب لهذه الفلسفة حسب عرض شو لها أن تروق فى أعين المحترفين من الفلاسفة . فاعترض برجسون بلطف عليه قائلا فى لكتته الاجنبية « آه - لا آه هذا ليس مضبوطا تماما » (١) ولكن شو لم يستح أو يخجل على الإطلاق بل أجاب « اه يازميلي العزيز - اننى أفهم فلسفتك أكثر بكثير مما تفهمها أنت » وضغط برجسون على قبضتى يديه وكاد ينفجر غاضبا ولكنه تمالك نفسه بجهد جهيد واستمر شو فى عرض فلسفته بمفرده .

وتتلخص الحادثة الثانية فى أنه قابل مازاريك Masaryk الاكبر الذى جاء الى لندن فى زيارة رسمية والذى لمح من طرف خفى من طريق سكرتيره الى رغبته فى أن يرى بعض الناس فى الساعة العاشرة صباحا قبل أن يبدأ فى انجاز مهام زيارته الرسمية . وكنت واحدا منهم وعندما وصلت اكتشفت أن الأشخاص الآخرين هم شو وويلز وسوينرتون Swinnerton ووصلنا جميعا فى الميعاد ماعدا شو الذى جاء متأخرا والذى تقدم لا يلوى على شيء نحو الرجل العظيم وقال له : « مازاريك . ان سياسة تشيكوسلوفاكيا سياسة خاطئة تماما » وشرح وجهة نظره فى حوالى عشرة دقائق وانصرف دون أن ينتظر رد مازاريك عليه .

- (١) Mathuselah وهى مسرحية معروفة لشو
(٢) هذه العبارة الغريبة فى النطق فاه بها برجسون بلكتته الاجنبية وهى : It is not quite zat

وكان شو مثل الكثيرين من أصحاب النكتة يعتبر أن النكتة بديل كاف للحكمة . وكان يدافع عن أبة فكرة مهما كانت سخيفة بلذكاء من شأنه أن يجعل أولئك الذين يرفضونها يبدون كالمغفلين . وقابلته ذات مرة في مأدبة « غداء ايرهون » (١) أقيمت لتكريم صامويل بتلر وعظمت لدهشتي أنه كان يقبل كل كلمة فاه بها ذلك الحكيم على أنها انجيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كما يقبل حتى النظريات التي قيلت على سبيل المزاج لا غير ، كالزعم بأن الاوديسا قد كتبتها امرأة . وكان أثر بتلر عليه أكبر بكثير مما يدرك معظم الناس . فقد أخذ منه شو كراهيته لداروين مما جعله فيما بعد معجبا ببرجسون . ومن الامور العجيبة ان الآراء التي اعتنقها بتلر حتى يجد لنفسه عنذرا ينتحلها للاختلاف مع داروين قد أصبحت جزءا من المذهب الرسمي الاصيل المقروض على الاتحاد السوفيتي .

وليس هناك سبيل للدفاع عن احتقار شو للعلم . وهو يشبه تولستوى في عدم استطاعته الايمان بأهمية أى شيء كان يجله . وكان حادا عنيفا في هجومه على تشريح الحيوانات الحية . وأظن أن السبب ثم يكن كامنا في عطفه على الحيوانات ولكن في عدم ايمانه بالمعرفة العلمية التي يوفرها لنا تشريح الحيوانات الحية . وأظن أن مذهب النباتي كذلك لا يرجع الى بواعث رحيمة بل لعله يرجع الى نوازمه التي تنطوى على قهر البدن والتي عبر عنها تعبيرا كاملا في الفصل الاخير من مسرحية « متوشالغ » . وكان أحسن ما في شو يظهر في مقدرته كجدلى ، فاذا رأى في معارضه أى سخف أو زيف انتهره في لمح البصر ، واستفله في صورة تزيد من انصاره وبشكل يدعو الى اقناع مؤيديه . وفي بداية الحرب العالمية الاولى أصدر كتابه « التعقل فيما يتعلق بالحرب » (٢) وعلى الرغم من أنه لم يكتب كواحد من انصار السلام الا أنه اسخط معظم الوطنيين عليه برفضه موافقة الحكومة وقرارها على اللهجة الاخلاقية العالية المناققة التي تبنتها . لقد كان شو جديرا بالثناء في مثل هذه الاحوال حتى وقع فريسة مداينة الحكومة السوفيتية واطرائها المتعلق له . فقد فقد كل قدرته على النقد وعلى كشف النقاب عن الزيف الوافد من موسكو ، ومع أنه كان ممتازا في الجدل الا أنه لم يرق الى مستواه الجدلى في عرضه لارائه الخاصة التي كانت مشوشة الى حد ما حتى السنوات الاخيرة من حياته التي أقر فيها الماركسية النظامية

(١) Erehon وهي قصة كتبها صامويل بتلر

(٢) Common Sense about the war

وكان شو يتسم بصفات عديدة تسيحق الاعجاب العظيم فقد كان
 جسورا لا يهاب شيئا على الاطلاق ، كما كان يعبر عن ارائه في قوة ،
 سواء كانت هذه الاراء تروق عامة الناس أم تسوؤهم ، وكان لا يرحم
 في هجومه على الذين لا يستحقون الرحمة ولكنه كان في بعض الاحيان
 لا يرحم أيضا هؤلاء الذين لا يستحقون أن يكونوا ضحاياه . وباختصار
 يستطيع المرء أن يقول أنه أحسن كثيرا وان يكن قد أساء بعض الاساءة ،
 لقد كان مدهشا كمحطم للاوثان ولكنه كان ، كأيقونة تعبد ، اقل مكانة
 ببعض الشيء .

(٤) ألفريد نورث هويتهد Alfred North White head

بدأت صلتى بهويتهد أو بوالده بتعبير أصبح فى عام ١٨٧٧ . فقد قيل لى أن الارض كروية ولكنى رفضت أن أصدق هذا لثقتى فى إسواهد الحواس . واستدعى قسيس الابرشية ، الذى تصادف أن كان والد هويتهد ، لاقناعى . وسعت السلطات الكنسية جاهدة لكى تحملنى على التفكير فى أهمية الاختبار التجريبي فبدات احفر حفرة آملا ان اخرج منها الى الجهة المقابلة فى سطح الكرة الارضية . وعندما أخبرونى أنه ذلك لا يجدى فى شيء ، بدأت شكوى تتجدد .

وانقطعت صلتى بهويتهد حتى عام ١٨٩٠ عندما حضرت ، كطالب جامعى مستجد محاضراته فى الاستاتيكا . وطلب هويتهد من الفصل استذكار المادة ٣٥ فى الكتاب المقرر . وعندئذ التفت الى وقال : «لست بحاجة الى استذكارها لانك تعرفها أصلا » ، فقد سبق أن اقتطفتها . برقمها فى امتحان المنحة الدراسية قبل ذلك بعشرة اشهر . ولمس شفاف قلبى بذكره هذه الحقيقة . ولم ينته عطفه عند هذا الحد فقد طلب الى الطلبة الاذكياء أن يسعوا الى التعرف بى ، لدرجة أننى تعرفت بهم جميعا فى خلال أسبوع واحد ، وأصبح الكثيرون منهم أصدقاء العمر .

وفى خلال انتقالى التدرجى من طالب الى كاتب مستقل ، استفدت من ارشاد هويتهد . وكانت نقطة التحول رسالة الزمالة التى كتبها فى ١٨٩٥ . وعندما ذهبت لاراه قبل اعلان النتيجة بيوم واحد ، انتقد على تقدا قاسيا بعض الشيء ، وان كان على حق تماما فى نقده . وأصابتنى خيبة أمل شديدة وقررت أن أرحل عن كامبريدج دون انتظار اعلان النتيجة فى اليوم التالى . (وغيرت رايى على كل حال ، عندما تناول جيمس وارد James Ward رسالتى بالمدح والثناء) . وعندما بلغنى أنه قد تم اختيارى زميلا أنحت عليه زوجته باللائمة لقسوته على فى النقد - ولكنه دافع عن نفسه قائلا لقد كانت تلك اخر مرة يخاطبنى فيها كتلميذ . وعندما بدأت أكون فى عام ١٩٠٠ آراء مستقلة - كان من حسن طالعى أننى استطعت اقناعه بأنها لا تخلو من الفائدة . وكان هذا أساسا لعملنا المشترك الذى استغرق عشر سنوات فى وضع كتاب ضخم (١) ليس لاي منا الفضل الكامل فى تأليف أى جزء منه .

وفى انجلترا كان هويتهد يعتبر عالما رياضيا فحسب ، وترك الامر لامريكا لتكتشفه كفيلسوف وكنا نحن الاثنين على خلاف فى آرائنا الفلسفية لدرجة أن العمل المشترك بيننا لم يعد ممكنا . وبعد أن ذهب الى أمريكا

كان طبيعيا الا اراه الا نادرا . وبدأت هوة الخلاف بيننا تتسع في اثناء الحرب العالمية الاولى فقد كان يختلف معى احتلافا كليا حول دعوتي الى السلام . ولكنه كان أكثر تسامحا منى فيما يتعلق بخلافاتنا في هذا الموضوع .

وكنت ملوما أكثر منه - على الفتور الذى اعترى علاقات الود والصداقة التى كانت تربطنا نتيجة لهذه الخلافات .

وفي الشهور الاخيرة من الحرب قتل ابنه الاصغر فور بلوغه الثامنة عشرة . وسبب له هذا المأمر . ولم يتمكن من الاستمرار في عمله الا بمجهود هائل ينطوى على ترويض النفس . وكان للالم الذى احس به لهذه الكارثة علاقة وثيقة بتوجيه افكاره شطر الفلسفة وبالسبب الذى حدا به الى البحث عن وسائل للهرب من الايمان بكون ميكانيكي لا غير . وكانت فلسفته غامضة للغاية كما كان فيها الكثير مما لم انجح في فهمه قط . وقد كان يبدى دائما ميلا نحو « كانت » الذى لم احسن الظن به - وعندما بدأ في تكوين فلسفة مستقلة خاصة به كان واقعا تحت تأثير برجسون البالغ . وكان شديد التاثر بنظرية وحدة الوجود ، ويعتقد انه عن طريق هذه الوحدة فقط يمكن للاستدلالات العلمية أن تجد لها مبررا . أما مزاجي فقد قادني الى الاتجاه المضاد واني اشك اذا كان العقل الصرف يستطيع أن يقرر من منا كان أقرب الى الصواب من الآخر . وقد يقول أولئك الذين يفضلون نظريته الفلسفية أنه يرمى الى ادخال العزاء في نفوس العاديين من البشر في حين اهدف أنا الى ادخال القلق في نفوس الفلاسفة . وقد يرد من يفضل نظريتي بأنه بينما هو يدخل السرور على الفلاسفة أقوم أنا بتسليّة العاديين من الناس . ومهما يكن الحال فقد افترقت سبلنا رغم بقاء الود بيننا حتى النهاية .

كان هويته رجلا متعدد الاهتمامات بشكل غير عادي، وكان يدهلني بمعرفته للتاريخ . واكتشفت ذات مرة بطريق المصادفة أنه يقرأ كتاب ناولوساري « تاريخ مجمع ترنت » (١) وهو عمل جاد للغاية ويندر العثور عليه - ويطلع فيه قبل أن يهجع للنوم . وكلمة عرضت موضوعات تاريخية استطاع دائما أن يدلي ببعض الحقائق التي تلقى ضوءا عليها كالعلاقة متلا بين آراء بيرك السياسية ومصالحه في حى بيوتات الاموال في لندن The City والعلاقة بين هرطقة جون هوس (٢) واتباعه وبين مناجم الفضة في بوهيميا . ولم يذكر أى انسان هذا أمامي قط حتى بضعة أعوام خلت عندما أرسل الى بحث ثقة

Paolo Sarpi «History of the council of Trent»

(١)

John Huss مصلح اجتماعي في بوهيميا اتهم بالهرطقة تطورت

(٢)

دعونه الى حركة قومية ضد ألمانيا والبابا في القرن الخامس عشر .

في هذا الموضوع . ولم يكن لدى فكرة عن المصادر التي كان هويته،
قد استند اليها في استيفاء معلوماته . ولكنني علمت أخيرا من مستر
جون كينير بيل John Kennair Peel أنه من المحتمل أن يسكن
هويته قد استقى معلوماته من كتاب الكونت لتزو «بوهيميا : وصف
تاريخي اجمالي » وكان هويته يتسم بالدعابة الممتعة والرقعة العظيمة .
وعندما كنت طالبا في الجامعة كان الطلبة يلقبونه في تهكم « بالملك
شاروييم » وهي تسمية يرى من عرفوه في حياته فيما بعد انها تنطوي
على عدم الاحترام اللائق به وان كانت تناسبه حينذاك . وتحدث عائلته
من مقاطعة كنت وانصرف اعضاؤها الى الاشتغال كقساوسة منذ
الوقت الذي وطأت فيه قدم القديس أوغسطين أرض هذه المقاطعة
على وجه التقريب . وفي كتاب للوسين بريس Lucien Price
يسجل فيه محاوراته في أمريكا يصف هويته انتشار التهريب في جزيرة
ثانيت Isle of Thanet في مطلع القرن التاسع عشر حين جرت العادة
على اخفاء البراندي والخمر في أقبية الكنيسة بموافقة القسيس .
ويضيف هويته معلقا « وفي أكثر من مرة كانت جماعة المصلين تؤجل
الصلاة حتى تخفى الخمر عن الانظار يساعدها في ذلك القسيس نفسه،
عندما توافيها الاخبار وهي تنشفل بالقداس بقدم الضباط المداهمين
من بعيد على الطريق . وهذا دليل على مقدار الصلة الوثيقة التي تربط
كنيسة إنجلترا بحياة الامة » . وقد هاجر جده اليها من جزيرة شيبني
Isle of Sheppy

وانه مما يثلج صدرى اننى قابلته لأول مرة في جزيرة ثانيت لان
لتلك المنطقة مكانة أقرب بكثير الى شغاف قلبه من كامبريدج نفسها .
واحسنت انه ينبغي تسمية كتاب لوسين بريس بـ « هويته في
بارتيبوس Partibus وبارتيبوس لاتعنى كل شيء خارجه إنجلترا
بل كل شيء خارج جزيرة ثانيت .

وكان من عادته ان يروى في تسلية وسرور ان جدى الذي كان
يزعجه كثيرا انتشار الكاثوليكية الرومانية استحلخ هويته الا
تهجر كنيسة إنجلترا . ومبعث تسليته ان ذاك الامر كان بعيد الاحتمال
للافاة وكانت آراء هويته في اللاهوت تغاير اللاهوت الاصيل السائد .
ولكن شيئا من جو الابرشية استمر في اساليب مشاعره وظهر فيما بعد
في كتاباته الفلسفية .

كان هويته رجلا متواضعا للغاية . واقصى ماوصل اليه من
فخار هو محاولته الاكيدة الاعتراف بالصفات التي تعيبه . ولم يسته
أبدا ان يروى قصصا عن نفسه تتضمن عيوبه فقد كانت هناك في
كامبريدج سيدتان شقيقتان متقدمتان في السن كان مسلكهما يوحى
بأنهما قد خرجتا لتوهما من شخصيات رواية « كرانفورد » ولكنهما
كانتا في حقيقة الامر تقديميتين بل جريئتين فيما ذهبتا اليه من آراء

وكانتا تصدران كل حركة للإصلاح . واعتاد هويته ان يروى وهو حزين بعض الشيء كيف ان مظهرهما الخارجى خدعه عندما قابلهما لأول مرة وظن انه من دواعى تسليته ان يصدمهما قليلا ولكنه عندما عرض رأيا طفيفا فى ثوريته قالتا : - « أوه يا مستر هويته انه ليسرنا عظيم السرور أن نسمع منك هذا الراى » - بطريقة اوضحت انهما كانتا تنظران اليه حتى ذلك الحين على انه ركيزة من ركائز الرجعية .

وكانت قدرته على التركيز فى عمله غير عادية للغاية . وذات يوم فائظ من أيام الصيف عندما كنت أمكث معه فى جرانتر وصل صديقنا كرومبتون ديفز Crompton Davies فرافقتنه ابى الحديقة لتحية مضيفه . كان هويته منكبا على حل الرياضيات فوقنا أمامه على مسافة لاتزيد عن ياردة . وراقبناه وهو يملا الصفحة تلو الصفحة بالرموز . ولم يرنا مطلقا - وبعد وقت انصرفنا وفى نفوسنا احساس بالرهبة .

ويدرك الدين عرفوا هويته عن كتب جوانب متعددة فيه لم تظهر فى العلاقات السطحية الموقوتة . فقد بدا من الناحية الاجتماعية عطوفا وهقليا ليعرف التأثير الى قلبه سبيلا اما فى حقيقة الامر فقد كان الشخص الذى يتأثر - ولم يكن بكل تأكيد ذلك الوحش غير الانسانى « الرجل العقلى » وكان اخلاصه لزوجته وأطفاله عميقا متاججا ، كما كان شديد الادراك فى كل وقت من الأوقات لاهمية الدين وفى شبابه كاد أن يتحول الى الكاثوليكية الرومانية عن طريق تأثير الكاردينال نيومان فيه .

وأمدته فلسفته فيما بعد ببعض ماكان يصبو اليه من الدين . وكان يناجى نفسه نجوى حزينة - مثله فى ذلك مثل الآخرين الذين يعيشون حياة شديدة الخضوع للنظام . وعندما كان يفكر فى وحدته كان يتفوه بألفاظ السباب يوجهها الى نفسه باعتبارها مسئولة عن عيوبه التى يتصور وجودها . وكانت أولى سنوات زواجه مليدة بسحب المضايقات المالية وعلى الرغم من انه وجد صعوبات شديدة فى تحملها الا انه لم يسمح لها أن تبعده عن عمله الذى كان هاما وان لم يكن مجزيا .

وكانت تتوفر له قدرات عملية لم تجد لها مجالا كبيرا فى الوقت الذى كنت أعرفه فيه معرفة وثيقة كما كان على درجة مذهلة من الذكاء مما مكنه من شق طريقه بين أعمال اللجان بطريقة ادهشت أولئك الذين يعتقدون انه نظرى تماما ولا يعرف شيئا من أمور الدنيا . وكان من الممكن أن يصبح اداريا كفئا لولا عدم مقدرته على الرد على الرسائل .

وذات مرة كتبت اليه رسالة أسأله عن مسألة رياضية كنت فى حاجة الى اجابة عنها على عجل لاضمنها مقالا كنت اكتبه ضد بوانكاري. ولم يرد على خطابى فكتبت اليه مرة أخرى . ومع ذلك لم ائلق منه ردا فلما

لم يجب أبرقت اليه وعندما استمر في التزام الصمت ارسلت اليه برقية خالصة الرد ولكنه تحتم على في نهاية الامر أن أسافر اليه في برود ستيرز لكي أظفر منه بالاجابة واعتاد أصدقائه على هذا المسلك الشاذ بالتدريج . وعندما كان أى منهم يرد اليه رسالة فيما ندر يجتمع بفيه أصدقائه لتهنئته . وكان يبرر تصرفه بقوله انه اذا قام بالرد على الرسائل فلن يتوفر لديه وقت للعمل المبتكر . وأظن أن هذا التبرير صحيح ولا سبيل للرد عليه .

وكان هو يتهمد مدرسا كاملا فهو يهتم اهتماما شحصيا بكل من كان عليه أن يتعامل معهم ويتعرف على نقاط القوة والضعف فيهم وكان يستخلص من أى تلميذ له احسن ما يقدر هذا التلميذ على القيام به . ولم يكن يلجأ الى الكبت او السخرية او التعالى او غيرها من الصفات التى يحلو لأصغار المدرسين أن يلجأوا اليها . واعتقد أنه نفت روحه في كل الشباب القادر الكفاء الذى ربطته به صلة كما نفت في حبا صادقا باقيا .

(٥) جوزيف كونراد Joseph Conrad

تعرفت بجوزيف كونراد في سبتمبر عام ١٩١٣ عن طريق صديقتنا المشتركة الليدى اتولين موريل Attoline Morrell . وقد كنت لعدة سنوات معجبا بكتبه . ولكنى لم أكن أجري على التعرف به دون أن يقدمنى أحد إليه . وسافرت لمقابلته في بيته بالقرب من اشفورد Ashford في كنت Kent وأنا في لهفة بعض الشيء . وكان أول انطباع بركة في نفسى هو الدهشة ، فقد كان يتكلم الانجليزية في لكنة اجنبية واضحة للغاية ، ولم يكن هناك في مسلكه ما يوحى باثر البحر بأى حال من الاحوال . كان سيدا مهذباً بولنديا ارسقراطيا حتى أطراف أصابعه . وكان شعوره نحو البحر ونحو انجلترا شعور الحب الرومانسى الحالم — ولكنه حب على درجة من البعد تكفى لان تترك الرومانسية الحالة دون أن تتسخ أو تشوبها شائبة . وبدأ حبه للبحر يظهر في سن مبكرة جدا . وعندما أخبر والديه أنه يرغب في أن يصبح بحارا ، حثه أبواه على أن يلتحق بالبحرية النمسية ، ولكنه كان يتوق الى المغامرة والبحار الاستوائية والانهار الغربية التي تحيط بهما الغابات السوداء . ولم توفر له البحرية النمسية مجالا لارضاء هذه الرغبات . وهال العائلة أن يبحث عن عمل له فى البحرية التجارية الانجليزية وحاولت أثناءه عن عزمه ولكن قناته لم تلن .

وكان — كما قد يرى أى انسان من كتبه — اخلاقيا متشددا للغاية ، وأبعد مايكون من الناحية السياسية عن العطف على الثورات . وكنا — هو وأنا — فى أغلب آرائنا أبعد مانكون عن الاتفاق ، ولكننا كنا متفقين بشكل غريب على شيء أساسى جدا .

كانت علاقتى بجوزيف كونراد تغاير أبة علاقة لى تربطنى بأى انسان آخر ولم أكن أراه الا لاما ، ولفترة من الاعوام لم تطل . كنا فى الاعمال الخارجية من حياتنا نكاد نكون غرباء ، ولكننا كنا نتقاسم نظرة معينة للحياة الانسانية والمصير البشرى ، نظرة ربطتنا منذ البداية يوشائج متينة للغاية . وقد يجوز أن يغفر لى اقتطاف عبارة وردت فى خطاب كتبه لى بمجرد أن تم تعارفنا وينبغى على أن أشعر بأن التواضع يمنعنى من اقتطاف هذه العبارة لولا انها تعبر تماما عما كنت احس به نحوه . وكان ماعبر عنه يطابق ماكنت اشعر به ، قال :

« اننى أحمل لك حبا عميقا ينطوى على الاعجاب ، سيظل — حتى اذا لم ترنى أبدا مرة أخرى ونسيت وجودى غدا — لا يتغير وملكا لك حتى النهاية » .

وكنت أحمل الاعجاب لقصته العظيمة المروعة المسماة « قلب

الظلام » (١) اعجابا يعوق اعجابى بأى عمل آخر له ، ففيها نرى انسانا مثاليا ضعيفا بعض الشيء ينساق نحو الجنون لبشاعة الغابة الاستوائية والغربة بين المتوحشين . وتعتبر هذه القصة فيما اظن تعبيرا تاما عن فلسفته فى الحياة . وشعرت - رغم اننى لا اعرف اذا كانت مثل هذه الصورة ستجد صدق فى نفسه أم لا - أنه ينظر الى الحياة الانسانية المتحضرة ، والمحتلة من الناحية الاخلاقية ، نظرتة الى المشى المحفوف بالمخاطر فوق طبقة رقيقة من الحمم البركانية التى بردت بصورة طفيفة ، والتى يمكن أن تقذف حممها فى أية لحظة وتجرف أمامها من لا يتنبه لها ، وتفوق به فى أعماق نارية ملتهبة . وكان شديد الادراك للصور المختلفة التى يتخذها جنون العواطف المشبوبة التى يتعرض لها الانسان ، وكان هذا بالذات ما جعله يؤمن ايمانا عميقا بأهمية النظام . وربما يجوز للمرء أن يقول أن وجهة نظره كانت على نقىض ما يراه روسو من أن « الانسان يولد مكبلا بالأغلال ، ولكنه يستطيع أن يصبح حرا » . وأنا أعتقد أن كونراد يرى فى هذا المجال أن الانسان يصبح حرا لا باطلاق العنان لنوازعه ، ولا بانعدام السيطرة والاهتمام ، ولكن باخضاع البواعث المنحرفة من أجل غرض مسيطر .

ولم يكن يولى النظم السياسية كثيرا من الاهتمام رغم أنه كانت لديه بعض المشاعر السياسية القوية . وكان أقوى هذه المشاعر هو حبه لانجلترا وكراهيته لروسيا اللذان عبر عنهما فى «العميل السرى» (٢) وقد عبر عن كراهيته لكل من روسيا القيصرية والشيوعية بقوة عظيمة فى « تحت العيون الغربية » (٣) وكانت كراهيته لروسيا من ذلك النوع التقليدى السائد فى بولندا . وبلغت هذه الكراهية الحد الذى منعه من أن يعترف بفضل لاي من تولستوى او دوستوفسكى . وقد قال لى ذات مرة أن تورجنييف هو الروائى الروسى الوحيد الذى يمكن له الاعجاب .

وفيما عدا حبه لانجلترا او كراهيته لروسيا ، لم يكن يحفل بالسياسة كثيرا . فقد كان مهتما بالروح الانسانية الفردية وهى تجايبه عدم اكتراث الطبيعة وتجايبه غالبا عداوة الانسان كما تتعرض للصراعات الداخلية مع الأهواء ، الخير منها أو السوء ، التى تقود نحو الدمار . وكانت مآسى الوحشية والوحدة تشغل جانبها كبيرا من فكره وشعوره ومن أكثر قصصه تمثيلا لاتجاهاته قصة « اعصار الصين » (٤) ففي هذه القصة يقود القبطان - وهو انسان بسيط - سفينة حتى يخلصها

The Heart of Darkness	(١)
The Secret Agent	(٢)
Under Western Eyes	(٣)
Typhoon	(٤)

من برائن العاصفة في شجاعة لا تتزعزع واصرار متجههم . وعندما تنتهي العاصفة يكتب خطابا طويلا لزوجته ينبئها فيه بالعاصفة وفي سرده لما حدث يروي الدور الذي لعبه على أنه دور بسيط للغاية لا يعدو مجرد انجاز واجبه كقبطان ، كما يتوقع أي انسان بطبيعة الحال . ولكن القارئ يدرك من تنابها روايته كل ما قام به ، وكل ما جسر على عمله ، وكل ما قاساه وتحمله . وقبل أن يبعث بالخطاب ، يطلع خادمه في السفينة عليه ولكن الخطاب يظل الى الأبد لا يقرؤه أحد على الإطلاق لأن زوجته تجده مملا يبعث على السأم فتدنف به بعيدا دون أن تطلع عليه .

والشيئان اللذان يبدو انهما يشغلان كونياد أكثر من أي أمر آخر ، هما الوحدة والخوف مما هو غريب . فقصة «منبوذ الجزر» (١) تشبه « قلب الظلام » في كونها تعالج الخوف مما هو غريب . وكلا الوحدة والخوف مما هو غريب يظهران في القصة المسماة «أمي فوستر» (٢) التي تؤثر في النفس تأثيرا غير عادي . وفي هذه القصة نرى فلاحا سلافيا من الجنوب في طريقه الى أمريكا هو الوحيد الذي يبقى على قيد الحياة بعد تحطيم سفينته ، وتقذف به ليجج الموج الى قرية في كنت (٣) وتخشاها كل القرية وتسيء معاملته فيما عدا « أمي فوستر » وهي فتاة قبيحة غبية تحضر له الخبز وهو يتضور جوعا ثم تتزوجه في النهاية . ولكن الفزع مما هو غريب يستولي عليها أيضا عندما يعود زوجها الذي تشتد الحمى به الى لفة أهل بلده ، وتتزع طفلهما ، وتهجر زوجها فيموت وحيدا دون أهل . لكم عجيبة في بعض الاحيان لمقدار ما كان كونياد نفسه يشعر به وهو يعيش بين الانجليز من وحشة يحس بها هذا الرجل والتي كان يكتبها بجهد ارادي صارم .

كانت وجهة نظر كونياد أبعد ما تكون عن أن تتصف بالعصرية . فهناك في العالم الحديث فلسفتان احدهما ، تنحدر من روسو وهي تضع النظام جانبا على أنه غير ضروري . والاخرى تجد اكمل تعبير لها في النظم التوتاليرية (الديكتاتورية) وتؤمن بأنه لا بد من فرض النظام بالضرورة من الخارج . أما كونياد فيتمسك بالتقليد الأكثر قدما وفحواه أن النظام ينبغي أن ينبع من الداخل . وهو يحتقر انعدام النظام كما يكره النظام الذي يفرض من الخارج لا أكثر .

والفيت نفسى في كل هذا متفقا اتفاقا وثيقا معه . وعندما التقينا لأول مرة دار الحديث بيننا في ألفة ومودة تزايدتا بصورة مستمرة . . . وبدأ اننا نفوض سويا خلال طبقة بعد طبقة من السطحيات حتى وصلنا بالتدريج الى « النار المركزية » . وكانت تجربة لا تدانيها اية تجربة

An Outcast of the Islands

(١)

Amy Foster

(٢)

(٣) تقع على السواحل الجنوبي الشرقية من إنجلترا

أخرى كابدتها • والتقت عيوننا وتبادلنا النظرات ونحن أنصاف مرتاعين وأنصاف سكارى عندما وجدنا أنفسنا معا في مثل هذه المنطقة ، كانت العاطفة التي كابدتها متأججة كعاطفة الحب المشبوب كما كانت في نفس الوقت تشتمل على كل شيء في طياتها وخرجت من عنده وأنا مذهول لا أكاد أستطيع أن أجد طريقى بين شئون الحياة العادية ومجرياتها •

ولم ار كونراد ابان الحرب او بعدها حتى عودتى من الصين في عام ١٩٢١ وعندما انجبت طفلى الاول في هذا العام ، رغبت أن يكون كونراد اباه في العماد على قدر المستطاع دون اتمام المراسيم الرسمية . وكتبت الى كونراد أقول « اننى أود بعد استئذانك أن أسمى ابنى جون كوبراد . لقد كان أبى يسمى جون وكذلك جدى . وكذلك جدى الكبير . وكونراد اسم أرى الافضال والمزايا تتمثل فيه » . وقبل هذا الوضع وقدم لابنى في حينه الكأس المتبع تقديمها في مثل هذه المناسبات .

ولم اره فيما بعد الا قليلا لاننى كنت اعيش معظم العام في كورنوال، وكانت صحته في تدهور . ولكنى تسلمت منه بعض الرسائل الساحرة اذكر منها على وجه التخصيص خطابا عن كتابى عن الصين كتب فيه يقول : « لقد كنت دائما أحب الصينيين ، حتى هؤلاء الذين حاولوا قتلى (مع بعض الناس الآخرين) في فناء منزل خاص في تشانتاين حتى الشخص (وان كنت لا احمل له كبير الحب) الذى سرق كل ما املك من مال ذات ليلة في بانكوك ولكنه قام بتفريش ملابسى ، وطواها في عناية ونظام حتى ارتديها في الصباح ، قبل أن يختفى في اعماق سيام . وقد اولانى صينيون مختلفون حبهم وعطفهم الكثير وبلاضافة الى امسية قضيتها في تبادل الحديث مع سكرتير صاحب السعادة نسنج في شرفة فندق ، ودراسة قصيدة شعر بعنوان « الصينيون عبدة الاوثان » دراسة غير جادة او مكتررة ، فهذا كل ما اعرفه عن الصينيين . ولكن بعد قراءة رأيك المتع للغاية فيما يتعلق بالمشكلة الصينية أنظر نظرة ملؤها التشاؤم الى مستقبل بلدهم » • ومضى يقول ان آرائى عن مستقبل الصين « تبعث القشعريرة في روح الانسان وخاصة لأنى على حد قواه وضعت آمالى في الاشتراكية الدولية » . وقال معلقا : « هذا النوع من الاشياء الذى لا أستطيع ان افهم له معنى محدد . اننى لم اتمكن ابدا من ان اجد في كتاب لاي انسان أو في حديث لاي انسان أى شيء مقنع بالدرجة الكافية ينهض للحظة واحدة في وجه احساسى المستقر في اعماقى بالقدر الحزين الذى يحكم هذا العالم الذى يسكنه الانسان • » واستمر في قوله انه رغم ان الانسان قد تعلم أن يطير الا أنه لا يطير كما تطير النسور بل يطير كما تطير الخفافس • ولا بد أنك قد لاحظت كيف ان طيران الخفافس قبيح ومضحك وأخرق » . وشعرت أنه فى هذه التعليقات المتشائمة يظهر حكمة أعمق مما أظهرت

في آمالي الزائغه بعض الشيء في حل سعيد للصين . وسجب القول بان
الحوادث قد اثبتت صحة قوله حتى الآن .

وكان هذا الخطاب آخر اتصال لي به فلم اره ابدا بعد ذلك
لاحدث اليه وفي مرة رايتته عبر الطريق وهو منهمك في حديث مع رجل
لا اعرفه وهو واقف خارج باب المنزل الذي كان بيت جدتي في يوم من
الايام ، والذي تحول بعد وفاتها الى ناد للفنون . ولم أشأ أن أقاطع
ما بدا حدينا جادا فانصرفت . وعندما مات بعد ذلك بوقت قصير
اسفت على اننى لم اكن أكثر جرأة . اما المنزل فقد دمره هتلر وزال من
الوجود . واني أرجح أن كونراد يطويه النسيان . ولكن نبيله المتأجج
الشديد يسطع في ذاكرتي كأنه نجم يراه الرائي من أعماق بحر . وأود أن
استطيع أن أجعل ضيائه تستطع للآخرين مثلما سطعت لي .

(٦) جورج سنطيانا George Santayana

قابلت سنطيانا لأول مرة في «نمبل روف جاردن» ذات اسمية دافنة من أمسيات يونيو عام ١٨٩٣ ، وبعد يوم قاطظ يتصعب فيه العرق أصبحت درجة الحرارة لذيفة ممتعة كما غدا منظر لندن فائنا ، كنت قد انتهيت من البحث الرياضى المقدم لجامعة كامبريدج بعد عشرة أعوام من العمل المضنى الشاق وكنت على وشك أن أشرع فى دراسة الفلسفة . وأخبرنى أخى الذى عرفت سنطيانا عن طريقه انه فيلسوف ، ولذلك نظرت اليه فى اجلال عظيم زاد من شأنه أننى كنت أحس بالتححرر والانطلاق . وكانت له حين ذاك عينان واسعتان لامعتان على قسط وافر من الجمال . وأنصت اليه باحترام لأنه بدا لى كما لو كان تجسيدا لمركب صعب - أعنى الجمع بين أمريكا وأسبانيا . وأنا لا أستطيع أن أذكر على أية حال - أى شىء من الحديث الذى دار بيننا فى تلك المناسبة .

وحين بونعت معرفتى به وجدت أن علاقتنا يربطها شىء من التعاطف وان كان الكثير من أوجه الخلاف يشوبها . وكان يزعم لنفسه شيئا من الموضوعية التى لم تكن مخصصة تماما . ورغم أن والديه كانا أسبانيين الا أنه شب وتربى فى بوسطن وباشر التدريس فى جامعة هارفارد . ومع ذلك - فقد كان دأب الشعور بأنه منفى من أسبانيا . وعندما اندلعت السنة الحرب الاسبانية الأمريكية وجد نفسه شديدا التحمس للجانب الاسبانى . وقد لا يكون فى هذا ما يدعو الى الدهشة لأن والده كان حاكما لمايلا . وكانت مظاهر الموضوعية وعدم التحيز التى اعتاد أن يبدو عليها تختفى كلما كان الأمر يتعلق بوطنيته الأسبانية . وكان من عادته أن يقضى الصيف فى منزل أخته فى مدينة أفيلا القديمة - وذات مرة وصف لى كيف أن السيدات هناك يجلسن بجوار نوافذهن يغازلن معارفهن من الذكور وهم يمرون عليهن ثم يكفرن بعد ذلك عن هذا الأسلوب فى تزجية وقت الفراغ بالذهاب للاعتراف . ولما اندفعت معقبا على ذلك بقولى «بظهر أن هذه الحياة سقيمة ، مملة بعض الشئ - اعتدل وأجاب فى حمة «انهن يقضين حياتهن فى أعظم شئتين ؛ الحب والدين» .

وكان من الممكن له أن يبدى إعجابه بالاغريق والايطاليين فى العصر الحديث - وحتى بموسولينى . ولكنه لم يكن فى إمكانه أن يشعر باحترام حقيقى نحو أى انسان يأتى من شمال جبال الألب - وكان فى رأيه أن شعوب البحر المتوسط وحدها هى القادرة على التأمل - ولذلك فهم وحدها القادرة على أن تخرج فلاسفة حقيقيين . وكان ينظر الى الفلسفات الألمانية والبريطانية على أنها محاولات عائرة لأجناس غير ناضجة - كما كان يروقه فى البلاد الشمالية الرياضيون البدنيون ورجال الأعمال . كان صديقا حميما لأخى الذى لم يسول له النزق والاندفاع بذل محاولات للولوج الى لغز الألغاز الفلسفية . ولكن موقفه نحوى ونحو فلاسفة الشمال الآخرين ينم عن الاشفاق الرقيق لمحاولتنا الوصول الى شئ أعلى وأرفع من أن نرقى

اليه . ولم يسيء بحال من الأحوال الى علاقات الود التي كانت تربط
إلواحد بنا بالآخر لأن شعورى الوطنى الاكيد كان على قدم المساواة مع
شعوره تماما .

كان سنتيانا فى حياته الخاصة شبيها جدا بما كان عليه فى كتيبه
كان دمث الأخلاق شديد الرقة والعناية فيمايقوم به - كما كان من النادر
جدا أن تنور أعصابه . وقبل موقعة مارن Marne بأيام قلائل عندما
بدا استيلاء الألمان على باريس وشيك الوقوع - قال لى «أظن أنه يجب على
أن اذهب الى باريس لأن ملابسى الداخلية الشتوية موجودة هناك - وأنا
لاحب أن تقع فى قبضة الألمان . وقد تركت هناك أيضا مخطوط -كتاب
قضيت فى تأليفه العشرة الأعوام الماضية . ولكن هذا لا يهمنى كثيرا جدا»
ولكن موقعة مارن وفرت عليه على كل حال ضرورة القيام بهذه الرحلة .

وذكر لى ذات أمسية فى كامبريدج بعد انقضاء فترة كنت أراه فيها
كل يوم «اننى سأذهب الى اشبيليه غدا . فأنا أرغب فى أن أكون فى مكان
لايكبت الناس فيه عواطفهم » وفى ظئى أن هذا الموقف ليس من الغرابة فى
شئ لرجل يكبت عواطفه القليلة .

ويروى فى سيرة حياته التى كتبها عن نفسه عن إحدى المناسبات
التي استطاع فيها أخى أن يثير فيه قدرا من الانفعال والشعور الدافئ اذ
كان أخى يملك يختا دعا اليه سنتيانا ليصاحبه فيه . وكان اليخت راسيا فى
مكان موحل . ولم يكن هناك سبيل للوصول اليه الا عن طريق (سقالة)
ضيقة للغاية واستطاع أخى أن يعبرها فى يسر وخفة ولكن سنتيانا كان
يخشى أن يسقط فى الوحل . ومد أخى يده ليعاونه . ولكن لسوء الحظ
اختلف توازن سنتيانا لدرجة أن كليهما سقطا (بطرطشة) فى الوحل شبه
السائل على ضفة النهر . ويروى سنتيانا بشئ من الرعب أن أخى استعمل
فى هذا المقام الفاظا لم يكن ليتوقع من إيرل أن يعرفها .

وكان سنتيانا يبدو دائما على قدر من التألق بعض الشئ فقد كانت
ملابسه أنيقة على الدوام كما كان يلبس حتى فى أزقة الريف أحذية برقبة
ذات أزرار ، مصنوعة من الجلد اللامع . وأظن أن من الممكن لآى انسان
على قدر كاف من الذكاء أن يتكهن بهذه الصفات من ثنايا أسلوبه الادبى .

وعلى الرغم من أنه لم يكن كاتوليكيًا مؤمنا الا أنه كان يجذب بشدة
الدين الكاتوليكي بشتى الطرق السياسية والاجتماعية . ولم يكن يرى
هناك داعيا لأن تؤمن جماهير الناس بشئ حقيقى . فقد كان مايرغب فيه
هو أن تؤمن جماهير الناس بأسطورة ما تستطيع أن تظفر برضاء وتحوز
قبوله من الناحية الجمالية . ودعا هذا الموقف بطبيعة الحال الى أن يكون
شديد العداء للبرستانتية كماجعل الناس الذين يميلون نحو البروستانتية
يتعرضون له بالنقد والهجوم . وأدان وليم جيمس رسالته للدكتوراه
ووصفها بأنها الكمال فى العفن . ورغم أن الرجلين اشتغلا سويا سنوات
كثيرة الا أن أحدهما لم ينجح أبدا فى أن يحسن الظن بالآخر .

ولم أستطع أبدا من ناحيتى أن أعتبر سنتيانا فيلسوفا من وجهة

النظر الفنية رغم اعتقادي أنه أفاد كنفاد بإبداء وجهة نظر لم بعد الآن شائعة . وإلى حد ما أخفى الرداء الأمريكي الذي تدرت به كتاباته ، طبيعة تفكيره الرجعي المتطرف . ولم يكتف كاسباني بأن يؤيد الكنيسة سياسيا في سائر المحاولات التي تبذلها لتدعيم التفاليد العتيقة في ذلك البلد - ولكنه تفيلسوف رجع الى حد كبير الى المدرسية السائدة في القرن الثالث عشر . ولم يعرض هذا المذهب بصراحة كما فعل أتباع القديس توماس الجدد - ولكنه أشار اليه تحت أسماء مختلفة - حتى يعمى على القارئ فلا يعرف المصادر التي نبع منها تفكيره . وليس من العدل القول بأن آرائه هي نفس آراء المدرسين في القرون الوسطى تماما - فقد أخذ من أفلاطون أكثر مما أخذ من القديس توماس . ولكنني أظن أنه لو قدر له وللقديس توماس أن يلتقيا - لوجدا أنفسهما على اتفاق ونفاهم كبير للغاية .

وكتابه الرئيسيان في الفلسفة البحثة هما «حياة العقل» (١) الذي نشر في عام ١٩٠٥ و «مناطق الوجود» (٢) الذي نشر بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٤٠ . ويعالج سنتيانا حياة العقل تحت خمسة رؤوس موضوعات هي العقل في النطق العام والادراك Common Sense - المجتمع الدين الفن - العلم وأنا شخصيا لأرى أن مثل هذا الكتاب يستميل القارئ نحو هذا الضرب من الحياة التي يعتبره سنتيانا عقليا - فهو كتاب هادي أكثر مما ينبغي ينظر الى الأتباء نظرة استعراض لها ، كما أنه لا ينبض بالعاطفة ، العاطفة التي تبدو لي على أقل تقدير - رغم أنه قد يتعين إخضاعها والتحكم فيها - عنصرا جوهريا في أية حياة تستحق أن نحياها . وكتابه «مناطق الوجود» الذي كان آخر عمل فلسفي هام له - يتناول على التوالي موضوعات الجوهر والمادة والحقيقة والروح . وفي هذا الكتاب شأنه في ذلك شأن كتبه الفلسفية الأخرى لا يعنى سنتيانا بأن يسوق فيه الأدلة والبراهين ، والكثير مما يقول وخاصة فيما يتعلق بالجوهر يتجاهل الكثرة من الأبحاث التي يعنبرها معظم الفلاسفة المحدثين هامة ومرتبطة بالموضوع . فقد أغفل المنطق الحديث الذي ألقى ضوءا جديدا كاشفا على مشكلة الكليات القديمة Universals التي شغلت جانبا عظيما من اهتمام المدرسين . ويبدو أن كتاب سنتيانا «منطقة الجوهر» (٣) يفترض سلفا - بمعنى من المعاني على أية حال - حقيقة الكليات . انه لمن النزق والتهور القول بأن مذهبه باطل ، ولكنها صفة من صفات سنتيانا أن يفترض في هدوء صحة هذا المذهب دون أن يعنى أو يأبه بتقديم أية أدلة لاثباته .

وعلى الرغم من أنه قضى معظم حياته العاملة كأستاذ للفلسفة في هارفارد الا أن أهميته من الناحية الأدبية تفوق أهميته من وجهة النظر الفلسفية . وفي رأبي أن أسلوبه في الكتابة لا يمثل تماما ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب . فأسلوبه مثل أحديثه الطويلة الرقبة ، المصنوعة من الجلد اللامع . ناعم ومصقول أكثر مما ينبغي . والانطباع الذي تتركه قراءة

The Life of Reason	(١)
Realms of Being	(٢)
Realm of Essence	(٣)

كبيه في الانسان هو الاحساس بأنه يسبح مع تيار نهر ينساب في عومه ورقية - نهر عريض جدا لدرجة أنك من النادر أن ترى أيا من ضفتيه . ولكن كلما لاح من وقت لآخر لسان أرض بارز في الماء أصبت بالدهشة لنصورك أن هذا البروز جديد دون أن تنتبه الى وجوده أصلا ، والسبب في ذلك عدم شعورك بحركة التيار التي تجرفك في طريقها . واني لاجد نفسي عند قراءة كتبه موافقا على كل جملة أطلعها بطريقة تشبه طريقة من يسير أثناء النوم . ولكنني أعجز تماما بعد أن أفرغ من قراءة بضعة صفحات أن أذكر شيئا مما قرأت .

ورغم ذلك فاني مدين له بأفضل فلسفية معينة ، وفي شبابه كنت أتعلم مع ج . ١٠ . Moore في الاعتقاد بموضوعية الخير والشر . ولكن نعد سنينا الذي تضمنه كتابه «رياح المذهب» (١) كان السبب الذي دعاني لهجران هذا الرأي رغم أنني لم أفلح أبدا في أن أصل الى ماوصل اليه من ارتباح واستقرار .

كتب سنينا في النقد الأدبي - وبعض ماكتب ممتاز . كان له كتاب اسمه «ثلاثة شعراء فلاسفة» (٢) تناول فيه لوكريشس ودانتى وجوته . وقد ساءه بعض الشيء أنني قلت ان معالجه للشاعرين الايطاليين تفوق معالجه للشاعر الألماني . وبدت لي كتابته عن جوته خربا من اللغ والدوران يتصارع فيه على الدوام رضاه الفكري عن جوته مع اشمزازه التابع من مزاجه الخاص . واستهوانى اشمزازه أكثر مما استهوانى رضاه - ووددت لو انه اطلق لهذا الاشمزاز العنوان .

وكان يحمل لانجلترا قدرا عظيما من الحب والمودة . ويستطيع أي شخص انجليزى وطنى أن يطالع كتابه «مناجيات في انجلترا» (٣) في لغة وجور . وكب قصه مثل فيها اخي (الذي كان سانينا يكن له ودا كبيرا) دور البطل - كما كتب سيرة حياته في أجزاء عديدة نرجح أهميتها أساسا الى تصوير الصراع الدائر بين مزاجه الاسبانى والبيئة المحيطة به في بوسطن . وكان من عادته أن يزهر بان أمه الأرملة التي تعيش في بوسطن كانت تشيع القلق في نفوس أصدقائها من أهل نيوانجلاند لعدم قيامها بعمل أي شيء بتشغلها على الاطلاق . وعندما جاء اليها هؤلاء الأصدقاء على هيئة وفد يستفسرون منها عن الطريقة التي كانت تصرف بها وقتها أجابت «أذن سأخبركم - في الصيف أحاول أن أوفر لنفسي جوا باردا وفي الشتاء أحاول أن أستمتع بالدفء» . وكان اعجابه بهذه الاجابة يمنعه من أن يشعر أنه مستريح بين أهله وذويه في نيوانجلاند .

وكتب كثيرا عن الثقافة الأمريكية التي لم يكن يحسن الظن بها وألقى خطابا في جامعة كاليفورنيا أسماه «التقليد المذهب في الفلسفة الأمريكية» (٤) فحواه أن الحياة الأكاديمية الأمريكية غريبة عن روح أمريكا

- | | |
|--|-----|
| Winds of Doctrine | (١) |
| Three Philosophical Poets | (٢) |
| Soliloquies in England | (٣) |
| The Genteel Tradition in American Philosophy | (٤) |

التي وصفها بأنها فويه فتيه ولكنها مادية ، تجارية • وقد بدأ لي حلال
تجواني في اجمعات الامريديه انها سصبح انتر ملاءمة واسجاما مع روح
هذه البلاد لو انها اتخذت ناطحات السحاب معرا لها بدلا من الابنيه شبه.
الفوضيه اسي بحيص برص الجامعه • وكانت هذه وجهه نظر سنتيانا أيضا
ولكنني كنت اشعر على آية حال بشيء من الخلاف بيننا فقد كان سنتيانا يجد
معنه في الابتعاد والنظر الى ماحوله نظرة ملؤها الاحتفار في حين انني كنت
أجد أن هذا الخوف - عندما تضطرنني الظروف اليه - اليم للغاية • كان
الابتعاد والاحقار السهل عيبين فيه وبسببهما استحال شخصا من الصعب
لاسان ان يحمل نه الحب وان امكن أن يكن له الاعجاب •

ولكن العدن وحده يقتضى معاربه حكمي عليه بحكمه على - فهو يقول:
«وحسني حين بدون بصيرة رسل أشد ما يكون نفاذا - فان نعاذ رؤيته وحده
السبب في تركيز هذه البصيرة أكثر مما ينبغي • فهو يرى شيئا واحدا
في وقت واحد بجلاء غير عادي أو يرى جانبا واحدا من التاريخ أو السياسة
ولكن ادراكه الواضح الجلي لهذا العنصر يعصب عينيه فيمنعه من أن يرى
بقية العناصر » وانه لمن الغرابة بمكان أن يوجه الى تهمة المحاقظة الدينية
وسأترك المستمع لكي يصدر حكمه بنفسه في هذا الصدد •

ويبدو أن سننينا لم يشعر على الاطلاق أنه لو قدر له النجاح في نشر
مبدأ الولاء للماضي الذي يعتقه لأدى هذا الى خلق عالم يدب فيه الموت -
لا يكتب لأى شيء طيب النماء فيه • ولو كان يعيش في زمن جاليليو لأوضح
هو ان تسانه من الناحية الادبية بالنسبة الى لوكريش • ولكن
لوكريشس كان يقدم للعالم مذهبا قديما تمتد جذوره الى عدة قرون • واني
اشك في أن اعمال ديموفريطس وأبيقور التي تضمنت هذا المذهب عندما
كان جديدا كانت تبعب على الرضا من الناحية الجمالية كما تبعته قصيدة
لوكريشس وقد يكون من حظهما فقدان أعمالهما مما يجعل رأيي لا يعدو أن
يكون ضربا من الحدس والتخمين • والذي لا يحتمل الشك هو أن الجديد
لا يرقى أبدا في نضجه الى مرتبة القديم • ولذلك فان عبادة مبدأ النضج
لا تتمشى مع التفوق والامتياز الجديد • ولهذا السبب فان سنتيانا أديب أكثر
منه فيلسوف •

(٧) سيدنى وببياتريس وب Sidney and Beatrice Webb

كان سيدنى وب وزوجته بياتريس اللذان عرفتهما عن كسب لعدد من الاعوام وشاركتهما السكن بعض الوقت ، اكثر زوجين اكتمالا وقربا والتصاقا قدر لى أن اخالطهما فى حياتى على الاطلاق . ولكنهما رغم ذلك كانا يكرهان النظر الى الحب أو الزواج بمنظار رومانس . فقد كانا يعتبران الزواج تنظيمًا اجتماعيًا يهدف الى ملئمة الفريضة فى اطار قانونى وفى خلال السنوات العشر الأولى من زواجهما . كان من عادة مسز وب أن تقول بين حين وآخر : « الزواج — كما يقول سيدنى دائما سلة مهملات تلقى فيها العواطف » . وفى السنوات التالية حدث تغيير طفيف . فقد اعتادا بوجه عام أن يدعوا زوجين لقضاء مظلة نهاية الأسبوع معها ، وأن يخرججا بعد ظهر يوم الأحد للمشى التمشيط يرافقى سيدنى أثناء السيدة ، وتصحب بياتريس السيد وعندما يصل سيدنى الى نقطة معينة أثناء المشى نجده يقول : اننى أعلم تماما ما تقول بياتريس فى هذه اللحظة . انها تقول : « أن الزواج كما يذكر سيدنى دائما سلة مهملات العواطف » . ولا يعرف أحد على وجه اليقين اذا كان سيدنى قد فاه بهذه العبارة حقًا أم لا .

كنت أعرف سيدنى قبل زواجه . ولكنه كان حينذاك دون ما اصبح عليه بعد الزواج بكثير . وكان نعاون كل منهما مكملًا للآخر تمامًا . واعتدت أن أفكر — رغم ماقد يكون فى هذا من تبسيط للامور يتنافى مع الواقع — انهما كانت نوحى اليه بالأفكار التى يعوم هو بنقلها الى أعمال . وربما كان سيدنى أكبر الرجال اجتهادا ممن عرفتهم فى حياتى فعندما كانا يكتبان كتابا عن الحكم المحلى ، كانا يبعثان منشورات دورية الى سائر موظفى الحكم المحلى فى طول البلاد وعرضها للاستفسار عن بعض النقاط ، ويوضحان للموظف المختص أنه يحق له قانونا شراء كتابهما الوشيك الصادر من الأموال المخصصة للأغراض المحلية . وعندما قمت بتأجير منزلى لهما ، كان ساعى البريد — وهو اشتراكى متحمس — فى حيرة من أمره ليعرف اذا كان القيام بخدمتهما شرفا له أم مدعاة للبرم والضيق لما كانت تقتضيه هذه الخدمة من تسليم ألف رد يوميا على منشوراتهما . وقد بدأ وب حياته أصلا ككاتب من الدرجة الثانية فى الخدمة المدنية . ولكنه نجح عن طريق العمل الشاق الجبار أن يحصل على ترقية الى الدرجة الأولى . وكان رجلا جادا بعض الشيء ، لا يحب المزاح فى الموضوعات التى يعتبرها مقدسة مثل النظريات السياسية . وفى احدى المناسبات قلت له ان للديموقراطية ميزة واحدة على الأقل تتلخص فى أن عضو البرلمان لا يمكن أن يكون أكثر غباوة من ناخبه ، لأنه كلما ازدادت غباوته ، كان اختيار الناخبين له دليلا على غباوة أكبر . فتضايق وب ضيقا شديدا وقال بطريقة لاذعة : « هذا هو نوع المجادلات الذى لا أحبه » .

كانت دائرة اهتمامات مسز وب أوسع من تلك التى كانت تستهوى

روحها وكانت عميقة التدين دون أن سمي الى اي نوع من أنواع الدين المعروف بالأصالة والروح Orthodoxy، غير انها كاشتراكية كانت تفضل نيسة انجلترا Church of England لانها تنظيم من تنظيمات الدولة كما كانت شديدة الاهتمام بالآدميين كأفراد دون أن يفتصر اهتمامها على الأوقات التي يمكن أن يكونوا فيها ذوي فائدة ونفع فحسب وهي واحدة من سبع أخوات هن بنات رجل عصامي اسمه بوتر Potter جمع حل تروته عن طريق بناء الاكواخ للجيوش التي حاربت في القرم . كان بوتر من اتباع هيربرت سبسر . وكانت مسز وب نتاجا ملحوظا لتطبيق نظريات ذلك العليوف في التربية . وانه لما يدعو للاسف أن أمي التي كانت جارة لها في الريف ، وصفتها بأنها فراشه اجتماعية . ولكن يداعبني الرجاء في أن تغير أمي هذا الحكم لو أنها قد عرفت مسز وب فيما بعد وعندما بدأت تهتم بالاشتراكية ، قررت أن نستعرض الغائبين وتختار من بينهم ، فاستعرضت بوجه خاص النلاة الأكبر تقوفا وامنيازا وهم : وب ، وشو ، وجراهام ولاس Graham وكان اختيارها أشبه ما يكون بحكم بارييس وان كان الجنس في هذه الحالة معكوسا ، ووقع اختيارها على سيدني على أنه نظير أفروديت (١) .

كان وب يعتمد اعتمادا تاما على كسب فوته في حين أن بياتريس ورثت عن أبيها ثروة تكفل لها الرغد . وكان لبياتريس - على نقيض سيدني - عقلية الطبقة الحاكمة وتفكيرها . وحين رأيا أن لديهما من المال ما يكفل لهما العيش دون حاجة الى الكدح في سبيل الرزق ، قررا أن يقفا حياتهما على الدراسة والبحث ، وفروع الدعاية الراقية . وأصابا في كلا هذين المجالين نجاحا مذهلا . وتشيد كتبهما بما بذلاه من جهد مضن وعمل شاق كما يشهد انشاء مدرسة الاقتصاد The School of Economics على مهارة سيدني وحذقه . وأنا لاظن أن قدرات سيدني كانت ستؤتي نمارها على هذا النحو لو لم يعضدها ثقة بياتريس بنفسها ، ومساندتها ، وسألتها ذات مرة اذا كانت قد كابت في حداثتها، في أي وقت من حياتها ، شعورا بالحجل أو الحياء فأجابت بقولها : آه . لا . كنت أقول لنفسى اذا استشعرت في أي وقت من الأوقات جنوحى نحو الانكماش والجبن ، وأنا أدلف الى حجرة مليئة بالناس ، أنت أذكي فرد في عائلة من أذكي العائلات المنتمبة الى أذكي طبقة في أذكي أمة في العالم . فماذا يفزعك أو يخيفك إذن

وكم أحمل لمسز وب الود والاعجاب رغم اختلافى معها في كثير من الأمور ابمة جدا . كنت معجبا أولا وقبل كل شيء بقدرانها الهائلة الجبارة كما كنت معجبا الى جانب ذلك بكمالها واستقامتها فقد كانت تعيش من أجل أهداف عامة ، دون أن يجرفها الطموح الشخصى مطلقا - رغم أنها لم تكن تخلو منه - عن هذه الأهداف وكنت أودها لأنها كانت صديقة دافئة

(١) يشير رسل هنا الى الأساطير الاغريقية . وفيها تتنازع ثلاث ربوات على لقب الهة الجمال « فتحتكم الربوات الثلاث الى باريس ليختار واحدة من بينهن ويختار بارييس من بينهن فينوس أو افروديت . ويقول رسل ان الجنس في حالة مسز وب معكوس لأنها هي التي قامت بعملية الفرز والاختبار من بين سيدني وب ، وبرنارد شو ، وجراهام والاس .

عميقة على من تحمل لهم ودا خاصا • ولكنني كنت أختلف معها في الدين والاستعمار ، وعبادة الدولة التي كانت جوهر الغابية • لقد أفضت هذه العبادة بعائلة وب ، وبشو أيضا الى ما اعتقدت أنه تسامح غير لائق نحو موسوليني وهتلر ، كما أنها أفضت في نهاية الأمر الى الاطراء انزاف المضحك بعض الشيء للحكومة السوفيتية •

ولكن ليس للانسان جانب واحد فحسب لاينعداه • ولا تستثنى من ذلك عائلة وب نفسها • فقد أبدت ذات مرة ملاحظة لشو مفادها أن وب بدا لي أنه يقتدر بعض الشيء الى المشاعر الرحيمة • وأجابني شو • لا أنت مخطيء تماما • فقد كنت ذات مرة أستاذ مع وب تراما في هولندا • وكنا نأكل البسكوت من حقيبة نحملها معنا حين دخل عربة الترام مجرم يرسف في الأغلال ، يقتاده رجال الشرطة • فابتعد عنه الركاب جميعا في رعب وفزع • ولكن وب ذهب الى السجن وقدم له البسكوت • ، واني أذكر هذه القصة كلما وجدت نفسي تجنح الى انتقاد أي من وب وشو بشكل لا يستحقانه •

وكان هناك اناس تحمل لهم عائلة وب الكراهية • فقد كانا يكرهان ويلز لأن مسلكه كان يسيء الى أخلاق مسز وب الفيكتورية الصارمة ، ولأنه كان يسعى الى ازاحة وب عن عرش الجمعية الغابية التي كان يرأسها كما كانا يكرهان رامزي ماك دونالد Ramsay Mac Donald منذ بادي الأمر : وكان أقل شيء عدائي سمعته عنه على الإطلاق من أي منهما عند تكوين أول حكومة عماليه • فقد قالت عنه مسز وب انه ليس زعيما لكنه بديل صالح لرعيم •

وكان تاريخهما السياسي غريبا بعض الشيء • ففي أول الأمر كانا يعملان مع المحافظين لأن آرثر بالفور Arthur Balfour راق مسز وب بسبب استعداده لزيادة مخصصات مدارس الكنيسة من الحزاة العامة • وعندما سقطت حكومة المحافظين في عام ١٩٠٦ بذل وب وزوجته جهدا طفيفا ، غير فعال للتعاون مع الأحرار • ولكن بدا لهما أنهما قد يرتاحان كاشتراكيين في جو حزب العمال أكثر من ارتياحهما في أي جو آخر • وفي السنوات الأخيرة من حياتهما ، أصبحا عضوين يدينان بالولاء لهذا الحزب •

واستمرت مسز وب تدمن الصيام لعدد من الأعوام لبواعث بعضها صحي ، وبعضها ديني • وكانت ترفض أن تتناول طعام الافطار ، ونكتفي بتناول عشاء خفيف للغاية • وكانت وجبتها الرئيسية الوحيدة هي الغداء وكثيرا ما كانت تدعو عددا من الناس الممتازين المشهورين لتناول طعام الغداء في بيتها • ولكنها كانت تحس بالجوع الشديد لدرجة أنها كانت تسبق كل ضيوفها وتشعر في الأكل بمجرد أن يعلن الخدم اعداد المائدة • وكانت تؤمن مع ذلك بأن التضور جوعا يزيد روحانية ، وأخبرتني ذات مرة أن التضور جوعا يجعلها تستمتع برؤيا بديعة • فأجبتها بقولي : نعم اذا أكلت أقل مما ينبغي فسترين رؤيا • واذا أفرطت في الشراب فسترين ثعابين • ، وأخشى أن تكون قد اعتبرت هذه الملحوظة استخفافا أو استهتارا لا يغفر ولم يشاركها وب الجانب الديني من طبيعتها • ولكنه

لم يصاب شعورها الديني العداوة في قليل أو كثير وغم ما كاث يشبه له هذا الشعور من مضايقات أحيانا . وعندما كنت أمكث معهم في فندق في نورماندى ، كان من عاداتها أن تلزم حجرتها لأنها لم تكن تستطيع أن تتحمل منظرا المؤلم ونحن نتناول الافطار . وكان سيدنى على كل حال يهبط الدرج لاضرار أرغفة الخبز والقهوة . وفي أول صباح لها بالفندق، أرسلت مسز وب رسالة عن طريق الخادمة تقول فيها « ليست (لدينا) زبدة يفطر بها سيدنى . وكان استعمالها لكلمة « لدينا » الدالة على الجمع مصدرا لمتعة أصدقائها .

كان كلاهما لا يؤمنان بالديموقراطية أساسا ، ويعتبران أن مهمة السياسى تتركز اما في خداع عامة الناس أو ارهابهم . وأدركت جـذور مفهوم مسز وب عن الحكم عندما رددت أمامى وصف والدها لاجتماعات المساهمين . فالوظيفة المعترف بها لمديرى الشركات المساهمة فى هذه الاجتماعات هي وقف المساهمين عند حدهم ، وكانت فكرتها عن علاقة الحكومة بالناخبين شبيهة بهذا .

وكانت انقص الى يرويه والدها عن حياته السبب فى انها لم تشعر باحترام كبير نحو العظماء . فبعد أن أنم والدها بناء اكواح للمقر الشتوى للجيش الفرنسية فى القرم ، توجه الى باريس ليحصل على مستحقته . ولما كان قد أنفق كل رأسماله تقريبا فى اقامة هذه الابواح ، أصبح حصوله على مستحقته أمرا هاما بالنسبة له . ولكن على الرغم من اعتراف كل واحد فى باريس بأحقية فى الدين ، فقد تعطل صدور الشيك وأخيرا قابل اللرد براسى Brassey الذى كان قد جاء فى مهمة شبيهة بمهمته . وعندما شرح له الصعوبات التى نجابهه ضحك منه براسى وقال « يا زميلى العزيز ، أنت لا تعرف كيف تصرف أمورك يجب عليك أن تعطى الوزير خمسين جنيهها وخمسة جنيهات لكل واحد من أتباعه » . ونفسه مستر بوتر هذا بالفعل فوصله الشيك فى اليوم التالى .

ولم يكن سيدنى يتورع عن استعمال أساليب المكر والحديعة التى يعتبرها البعض مجافية لاحكام الضمير . فقد أخبرنى مثلا أنه حين كان يرغب فى حمل لجنة من اللجان على الموافقة على احدى النقاط التى نعترض عليها الأغلبية ، كان يعمد الى صياغة القرار بحيث ترد فيه النقطة التى يحندم حولها الخلاف مرتين ، ثم يدخل فى مناظرة طويلة بشأن ورود هذه النقطة لأول مرة . وأخيرا يتكرم بالاستسلام فى ذوق ولطف . والنتيجة التى انتهى اليها هي أنه فى تسعة أعشار الحالات لم يكن أحد يلاحظ ورود نفس النقطة فيما بعد فى نفس القرار .

لقد عمل سيدنى وزوجته الشيء العظيم فى سبيل اقامة العمود الفقرى الفكرى للاشتراكية البريطانية . ويكاد الدور الذى لعباه أن يكون نفس الدور الذى لعبه أتباع بنثام من قبل فى مؤازرة الثوريين البراديكاليين . وكانت عائلة وب تشترك مع اتباع بنثام فى الاتصاف بنوع من الجفاف والحلو من العاطفة والايمان بأن مكان المواطن هو سلة المهملات . ولكن اتباع بنثام وعائلة وب على حد سواء لقنوا مبادئهم لاشياعهم المتحمسين .

واستطاع بنشام روبرت أوين Robert Owen شأنهما في ذلك شأن زب
وكيرهاردي Keiri ardy أن ينجبا ذرية فكرية متزنة تماما . ولا ينبغي
لإنسان أن يتطلب من كل واحد سائر السجايا التي من شأنها
أن تزيد من قيمة البشر . ويكفي الإنسان أن يتحلى ببعض هذه السجايا
وبهذا المعيار يجتاز سيدني وزوجته الاختبار . والذي لا شسك فيه
أنه لولاهاما لأصبح حزب العمال البريطاني اشد عنفا وأكثر اضطرابا
هو عليه الآن . . وقد تدثر بردائهما بعدهما ابن أخت مسز وب نلسير
ستافورد كريپس Stafford Cripps واني أشك في أن الديمقراطية
البريطانية كانت ستستطيع بدونها أن تتحمل بنفس الصبر السنوات
الصعبة الشاقة التي مازلنا نمر بها حتى الآن .

(أ) اللورد جون رسل Lord John Russell

ولد جدي الذي أدركه بوضوح وجلاء - في الثامن عشر من أغسطس عام ١٧٩٢ - بعد أسبوعين من مولد الشناعر شيلي الذي انتهت حياته عام ١٨٢٢ . وفي اللحظة التي ولد فيها جدي كانت الثورة الفرنسية قد بدأت لتوها في الاندلاع - وفي السهر الذي رأى فيه النور - سقطت الملكية . وكان قد بلغ من العمر شهرا واحدا عندما ادخلت مذابح سيمتير الرعب والفرع في قلوب الملكيين الانجليز . وبدأت موقعة فالمي Valmy الحرب التي شنتها الثورة على الرجعية - والتي استمر آثارها مندلعا مدى خمس وعشرين سنة . كان موقف جدي من هذه الحرب - كما هو خليق بأحد أتباع فوكس (١) - أقرب ما يكون الى من يطلق عليه الآن اسم «الدائر في فلك اليسار» . واشتمل كتابه الأول (الذي لم ير طريقه الى النشر) اهداء ساخرا الى بت الذي كان لا يزال حينذاك رئيسا للوزارة . وفي أثناء حرب نابليون ضد أسبانيا والبرتغال - سافر الى أسبانيا - ولكن دون أن تعتمل فيه رغبة لمحاربة نابليون . وزار نابليون في البيا - وشهد الرجل العظيم أذنه كما كانت عادته . وعندما عاد نابليون من البيا ألقى جدي الذي كان قد مضى على عضويته في البرلمان عامان - خطابا يحص فيه على عدم مقاومته . ولكن الحكومة التي كانت في أيدي التوريير (المحافظين) حينذاك - قررت غير ذلك على كل حال . فوقعت معركة واترلو نتيجة لذلك وكان أعظم عمل قام به جدي هو اصدار قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ الذي وضع بريطانيا على الطريق نحو الديمقراطية الكاملة . وعارض المحافظون هذا القانون معارضة عنيفة للغاية كادت أن تقضى الى حرب أهلية . وكان الاصطدام في هذا الوقت بمثابة المعركة الحاسمة بين الرجعيين والتقدميين في انجلترا . ولم ينقذ انجلترا من نشوب الثورة فيها سوى تحقيق النصر السلمي في هذه المعركة - وقد كان لجدي الفضل الاكبر في احراز هذا النصر . وبعد ذلك اشتغل بالسياسة لفترة طويلة وتولى رئاسة الوزارة مرتين - ولكن الفرصة لم تسنح له مرة ثانية أن يتولى القيادة الحاسمة في وقت شدة عصبية . وفي السنوات الأخيرة من عمره - كان معتدلا في تحرره فقط - الا فيما يتعلق بأمر واحد يتلخص في كراهيته للأجحاف الناجم عن التفرقة المبنية على أساس ديني . ففي شبابه كان سائر الذين لا ينتمون الى عضوية كنيسة انجلترا يعانون من الاضرار السياسي الجسيم بمصالحهم . وكان اليهود بوجه خاص يستبعدون من البرلمان بمجلسيه - ومن وظائف كثيرة عن طريق قسم لا يستطيع أن يؤديه غير المسيحيين . ومازلت أتذكر بجلاء أنني رأيت حشدا كبيرا من الناس الذين ارتسمت على وجوههم ملامح الجدية يجتمعون على الحشائش المنبسطة أمام منزلنا يوم ٩ مايو ١٨٧٨ - قبل أن تفيض روحه بأيام قلائل . وكان الحشد يهتف - وتساءلت بطبيعة الحال عن السر في هتافه

(١) Charles James Fox (١٧٤٩ - ١٨٠٦) : أحد ساسة حزب الويجز (الأحرار) المعروفين بتأييدهم للثورة الفرنسية .

– فعلمت انهم زعماء المنشقين غير النابعين لكنيسة انجلترا – جاءوا يهنتونه على مرور خمسين عاما على أول انتصار عظيم له : وهو إلغاء قوانين الاختبار والمجالس Test and corporation Acts التي ستبعد الحارجين عن كنيسة انجلترا من الوظائف والبرلمان . وغرست مثل هذه الاحداث ودراستي للتاريخ التي ألقت ضوءا عليها في نفسى الحب الراسخ للحرية المدنية والدينية . وبقي هذا الشعور حيا في نفسى على الرغم من تولى الأنظمة الديكتاتورية المختلفة التي أغرت الكثيرين من اصدقائي من اليمين أو اليسار على حد سواء . . .

ونظرا لوفاة والدي – عشت في بيت جدي خلال السنتين الأخيرتين من حياته . وكانت حالته الصحية قد تدهورت كثيرا حتى منذ بداية هذا الوقت . ومازلت أذكره وهو يتحرك خارج البيت على كرسي بعجلات – كما أنني أذكره وهو جالس يقرأ في حجرة الجلوس الخاصة به . وأنا أذكر – وإن كانت ذاكرتي لا يعول عليها بطبيفة الحال – أنه كان مشغولا طيلة الوقت بقراءة التقارير البرلمانية على هيئة مجلدات تزدحم بها جدران قاعة واسعة . وكان جدي في ذلك الوقت الذي أعود بذاكرتي اليه يفكر في عمل يقوم به بشأن الحرب الروسية التركية في عام ١٨٧٦ . ولكن التدهور الذي أصاب صحته جعل هذا مستحيلا .

وفي الحياة العامة كثيرا ما كانت توجه اليه نهمة البرود والحلو من العواطف . ولكنه كان في بيته حانيا ، محبا ، شفيقا الى أقصى حد . وكان يحب الأطفال – وأناى لا أذكر مناسبة واحدة زجرتني فيها كي أتوقف عن احداث الجلبة أو قال أيا من تلك الاشياء الناهرة والناحية الأمرة التي اعتاد الناس الكبار في السن أن يوجهوها الى الأطفال الصغار . وكان يتقن اللغويات فلم يجد أدنى مشقة في القاء الخطب باللغة الفرنسية أو الاسبانية أو الايطالية . واعتاد أن يستغرق في ضحك شديد وهو جالس يقرأ «دون كيشوت » في لغتها الاصلية . وكان يحمل كسائر الاحرار من أهل زمانه الحب الثرومانسى العالم لايطاليا . وأهدته الحكومة الايطالية تمثالا يمثل ايطاليا معبرة بذلك عن امتنانها لخدماته في سبيل قضية الوحدة الايطالية . كان هذا التمثال قائما على الدوام في حجرة حلوسه – وكنت أجد فيه أعظم متعة وتسلية .

كان جدي ينتمي الى نوع من الناس انقرض الآن تماما – ذلك النوع من المصلحين الأرستقراطيين الذين يستمدون حماسهم من أعمال الأقدمين من الأغريق والرومان من أمثال ديمستينوس Demosthenès . وتاسيتوس Tacitus أكثر من استلهمهم أى مصدر حديث . كانوا يبدون اليمة اسمها « الحرية » ولكن ملامحها كانت غامضة منبهة بعض الشيء . وكانوا يعتقدون أيضا في وجود شيطان زجيم اسمه «الاستبداد» الذي كانت قسامته تتضح بصورة أكبر – ويتمثل في الملوك والقساوسة ورجال البوليس خاصة إذا كانوا من الأجانب . ولقد ألهم هذا المذهب المفكرين من الثوار في فرنسا وإن كانت مدام رولان Madame Roland قد اكتشفت وهي على المفضلة بساطة هذا المذهب المفرطة وسداجته . . . إن هذا المذهب هو الذى ألهم بيزون وقاده الى أن يحارب في بلاد اليونان – كمنا

الهم مازينى وغاريبالدى والمعجبين بهم من الانجليز . وكان هذا المذهب يلبس ثياب الادب والشاعرية واورومانية دون أن تشوبه على الإطلاق حقائق الاقتصادية القاسية التي تسود سائر التفكير السياسى الحديث . كان جدى فى طفولته يتلقى العلم على يدي مرب اسمه الدكتور كارتريت Cartwright قام باختراع نول جديد كان أحد العوامل الرئيسية فى قيام الثورة الصناعية . ولم يعلم جدى أبدا أنه قد اخترع هذا النول - ولكنه كان يحمل له الاعجاب للغة اللاتينية المتأنفة - وسمو عواطفه الأخلاقية الى جانب كونه أخا لأحد الثوريين من منيرى القلاقل والاضطرابات المعروفين .

كان جدى يدين بالديموقراطية كمثل أعلى ولكنه لم يكن من رايه التعجيل بالوصول اليها بأى حال من الأحوال - فقد كان يفضل الامتداد التدريجى لحق الانتخاب . ولكنى أظن أنه كان مقتنعا بأنه مهما قسدر لحق التصويت أن يمتد فستبقى زعامة الأحزاب الانجليزية المصلحة قاصرة على كبار العائلات المنتمية الى حزب الاحرار (الويجز) وأنا لا أعنى أنه كان مقتنعا بذلك عن وعى وادراك ولكن هذا الاقتناع كان جزءا من الهوى الذى يتنسسه - وشيئا يمكن التسليم به دون جدال أو نقاش .

وكان جدى يعيش فى بمبروك لودج Embroke Lodge وهو منزل يقع فى وسط ريتشموند بارك - ويبعد حوالى عشرة أميال عن وسط لندن . كان المنزل هدية من الملكة فيكتوريا اليه - منجته اياه لاستعماله مسدى حياته وحياة جدتى . وفى هذا البيت عقدت اجتماعات وزارية كثيرة - كما وفد اليه كثير من الناس المشهورين . وفى احدى المناسبات زاره شاه ايران واعتذر جدى عن صغر حجم البيت فأجابه الشاه بأدب « نعم انه صغير ولكنه يحوى رجلا عظيما » وفى هذا البيت قابلت الملكة فيكتوريا وعمرى سنتان . وأثارت اهتمامى الشديد زيارة ثلاثة من الدبلوماسيين الصينيين بملابسهم الصينية الأنيقة الرسمية حينذاك - كما أثارت اهتمامى زيارة اثنين من المبعوثين الزوج من ليبريا . وكانت فى حجرة الاستقبال منضدة يابانية بدعة الصنع مطعمة - أهدتها الحكومة اليابانية لجدى . وأصطفت على البوفيهات زهرتان ضخمتان من الصننى أهداهما اليه ملك ساكسونى . وكانت هناك مسافة ضيقة تفصل بين المائدة ودولاب الصننى - وكان محروما على تماما أن أحشر نفسى بينهما . ولهذا كنا نطلق عليها دائما غاز الدردنيل . كان كل ركن من أركان المنزل يقطن فى ذكرباته بحادثة من أحداث القرن التاسع عشر أو بأحد الأنظمة الاسائدة فيه والتي تبدو الآن آثارا من آثار التاريخ البعيد كحمام الدودو الذى انقرض من العوالم وكان كل شيء له علاقة بطفولته حزناء من عالمه وفى وانقضى تماما فيه نهضا الراهر - البست الفسكتة روى المتنقل لم بعد الآن ملكا للملكة أه ملك دمده لمن شياه ولكنه تحول الى مكان عام لاحتراس الشاهى . أما الحديقة التي امتلأت فيما مضى بالخايرة والآركان القصبة حده يمكن لأى طفا أن يختصم فقد أصبحت الآن مفتوحة على مصر أعينها لعامة الناس . ألدبله ماسه ن ألدده ن ألدن بمثلن ملوك دول اختفت لتحل محلهما حمراء ربات - رجال الأدب القرون الذين يخطون أنفسهم

بمظاهر الأبهة والعظمة والذين بدا لهم كل قول عادى ورخيص على أنه ذو دلالة وعمق • كل هؤلاء اختفوا • وفوق هذا كله - اختفى الاقتناع المطلق بالاستقرار والثبات الذى كان يصور انتفاء التغيير فى أية رقعة من العالم على أنه بديهية مسلم بها لا تقبل النقاش أو الجدل • ولا يستثنى من ذلك غير التطور المنظم التدريجى فى أنحاء الدنيا كلها نحو دستور يشبه دستور بريطانيا بالضبط • فهل كان هناك فى أزمنة التاريخ عصر مثل هذا العصر الذى عصب عينيه فى سعادة وانتشاء دون أن يتنبه الى أحداث المستقبل ؟ لقد تنبأت كاسندرا Cassandra (١) بحق بحلول المصائب فلم يصدقها أحد • وتنبأ أهل العصر الذى عاش فيه جدى تنبؤا زائفا بالرفاهية فصدقهم الناس • ولو تمكن جدى من أن يعود مرة ثانية الى عالمنا الراهن لأصابته أحداث القرن العشرين بالدهشة أكثر مما تصيب جده أحداث القرن التاسع عشر ، لأنه يصعب على الذين شبوا وترعرعوا فى أحضان تقليد قوى راسخ أن يتأقلموا فى العالم الراهن ، والادراك لهذه الصعوبة يجعل فى الامكان فهم كيف تتعرض الامبراطوريات التالدة والنظم العريقة فى الماضى والحاضر - التى بقيت على مر الدهور لأن تكتسح ويطاح بها وينتهى أمرها الى الزوال ، لأن التجربة السياسية التى تتضمنها هذه الامبراطوريات والنظم قد أصبحت بين يوم وليلة غير ذات فائدة ولا تصلح عند التطبيق • ولذلك فإن عصرنا يولد الحيرة فى نفوس الكثيرين ولكنه يقدم فى نفس الوقت احتمال التحدى المثير الى أولئك القادرين على الفكر الجديد والخيال الجديد •

(١) كاسندرا فى أساطير الاغريق هى ابنة ملك طروادة تنبأت بهلاك طروادة وفنائها فلم يصدقها أحد •

(٩) عظماء آخرون فى حياة برتراند رسل

لقد عرفت فى خلال حياتى عددا كبيرا من النساء والرجال البارزين منذ العصر الفيكتورى حتى يومنا الراهن . وقد دلتنى تجربتى على أن أعظم الناس أثرا فى التاريخ - باستثناء حالات قليلة - ليسوا على درجة عظيمة من التأثير من الناحية الشخصية ، كما أنهم لا يمتازون بشكل غير عادى بالصفات التى تجعلهم شخصيات لا تنسى . قابلت الملكة فيكتوريا مرة واحدة فى حياتى فى السنة الثانية من عمرى ، ولست أذكر هذه المقابلة لسوء الحظ . ولكن الذين يكبرونى فى السن لاحظوا لدهشتهم أن مسلكى فى حضرتها كان ينم عن الاحترام البالغ . ومن ناحية أخرى، كنت فى نفس العمر عندما قابلت لأول مرة روبرت برونيغ Robert Browning الذى كان كثير من الناس يعتبرونه أحسن شاعر فى عصره . وقاطعت حديثه فى صوت يخترق الأذن بقولى : « لكم أتمنى أن يسكت هذا الرجل عن الكلام » . وتكررت مقابلتى له فى السنوات الأخيرة من حياته ، ولكنى لم أجد فيه شيئا يدعو الى التبريل . كان جنتلمانا عجوزا لطيف المعشر، عطوفا يشعر بالارتياح التام فى حفلات الشاي التى تجمع السيدات اللائى فى منتصف العمر ، كما كان شديد التألق ، رقيقا ، واليفا تماما . ولكنه كان يخلو من النار المقدسة التى يتوقع المرء أن يجدها فى شاعر .

ومن ناحية أخرى كان تينسون Tennyson ، الذى كنت أراه كذلك بشكل متكرر ، يمثل دور الشاعر دائما مما أثار احتقارى لة فى يفاعتى . وكان من عادته أن يسير فى الريف برهو وخيلاء فى معظم فضفاض ، ويصر كل الاصرار على عدم رؤية الناس الذين يصادفونه فى طريقه ، كما كان يستعرض المسلك اللائق بشهود ذهن الشعراء . ومن بين الشعراء الآخرين الذين قابلتهم ، أعقد أن أكثر شخصية لا تنسى هى شخصية ارنست تولر Ernest Toller ، ويرجع هذا أساسا الى قدرته على الألم الحاد غير الشخصى . أما روبرت بروك Rupert Brooke الذى كنت أعرفه معرفة غير وطيدة فكان جميلا يتدفق بالحيوية ، ولكن هذا الانطباع الطيب كانت تشوبه مسحة من اصطناع بيرون وعلم اخلاصه مع قدر من الزرشة والتزييق المصطنع .

وكانت لشخصية وليم جيمس من بين الفلاسفة البارزين - باستثناء الاحياء منهم - أكبر الأثر فى على الاطلاق ، على الرغم من الطبيعية التامة التى اتسمت بها تصرفاته وعلى الرغم من انتفاء كل مظاهر الشعور بأنه رجل عظيم . ولم تقلح أية محاولة من جانبه لظهور شعوره الديموقراطى ، ورغبته فى الاندماج التام مع روح عامة الناس فى أن تنتقص من قدره كاستقراطى مطبوع ، وكرجل يبعث امتيازه الشخصى على الاحترام . وبعض الفلاسفة - ممن لبسوا بالضرورة أكثرهم كفاءة ومقدرة - يتركون فى النفس كبير الأثر بسبب أمانتهم الفكرية . ومن بين هؤلاء يضرب هنرى سيدويك Henry Sidgwick الذى كان يدرس لى علم الاخلاق مثلا

رائعا • ففي شبابه كانت وظائف الزمالة في كامبريدج قاصرة فقط على هؤلاء الذين يرتضون التوقيع على بنود كنيسة انجلترا التسعة والثلاثين • وبعد انقضاء أعوام على توقيعها بدأت الشكوك تساوره • وعلى الرغم من أنه لم يكن ملزما بتأكيد ثباته على معتقداته ، إلا أنه قرر ان واجبه يقتضي منه تقديم استقالته • وقد عجل مسلكه هذا بتغيير القانون الذى وضع نهاية للقيود اللاهوتية القديمة • وقد كان كمدرس يظهر نفس الصديق والأمانة ، وينظر الى الاعتراضات التى يثيرها الطلبة فى أدب واهتمام كما لو كانت صادرة عن زملائه • وقد جعل هذا تدريسه أكثر جدوى من تدريس الكثيرين انذين يفوقونه فى الكفاءة والمقدرة •

ويتصف رجال العلم ، فى أحسن صورهم ، بنوع خاص من التأثير فى النفس منشؤه الجمع بين العقل العظيم وبساطة الاطفال • وعندما أقول (بساطة) لا أعنى أى شيء دال على انعدام الذكاء ، بل أعنى عادة التفكير فى غير الذات وبغض النظر عن الفائدة أو الخسارة الدنيوية التى يتضمنها ابتداء رأى أو القيام بعمل • وقد كان انيشتين من بين رجال العلم الذين أعرفهم مثلا رائعا لهذه الصفة •

وفيما يتعلق برجال السياسة ، عرفت سبعة رؤساء وزارة ابتداء من جدي (الذى تولى رئاسة الوزارة فى عام ١٨٤٦) حتى المستر آتلى • وكان جلادستون - الذى كان معارفه يشيرون اليه (بالمستر) جلادستون - أكثر شخصية لا تنسى على الإطلاق • كما كان لينين الرجل الآخر الوحيد الذى عرفته فى الحياة العامة والذى يمكننى اعتباره على قدم المساواة فى أثره الشخصى مع جلادستون • كان جلادستون تجسيدا للفكر الفيكتوري كما كان لينين تجسيدا للمعادلات الماركسية - ولم يكن أى منهما انسانيا تماما وان كان كل منهما يملك سلطان قوة من قوى الطبيعة •

كان مستر جلادستون فى حياته الخاصة يحقق هيمنته على الآخرين عن طريق جبروت عينه السريعة النفاذة التى يقصدهن ورائها اشاعة الرهبة والخوف • وكان المرء يشعر أمامه كما يشعر نلميذ صغير فى حضرة مدرس من الجيل القديم برغبة فى استئذانه قائلا « من فضلك ياسيدى ، لم أكن أنا الذى فعلت هذا » وكان كل انسان يشعر فى حضرته بمثل هذا الشعور وأنا لأستطيع أن أصور مخلوقا يجد فى نفسه الجرأة أن يروى له قصة يحتمل ان تثير لو جانباً ضئيلاً من غضبه أو ضيقه ، فاستشباعه الاخلاقى للقصة كان كهيلا بأن يخيّل الراوى الى قطعة حجر ، كانت لى جسده هى أفظع امرأة عرفت فى حياتى فقد كانت فرائص مشاهير الرجال ترتعد دائما أمامها ، ولكن ذات مرة عندما كان مستر جلادستون مدعوا للشاي أخبرتنا جميعا سلفا أنها لن تسكت له بخصوص سياسته الايرلندية التى كانت تختلف معها بشدة ، وحضر جلادستون ، وكنت موجودا طيلة الوقت وقد تعلققت أنفاسى متوقعا الصدام المنتظر ، ولكن بالأسف رأيت جدتي تقيض رقعة ولم تنفوه بحرف واحد يجعل الأسد يزار ، ولم يكن ليحول بخاطر انسان أنها كانت تختلف معه على أى شيء •

وكانت أكثر تجربة مروعة مخيفة فى حياتى تتصل بالمستر جلادستون

فعندما كنت في السابعة عشرة من عمري شابا شديدا الحجل والارتباك
حضر عندنا جلادستون ليقضى عطلة نهاية الاسبوع مع عائلتي ، وكنت
«رجل» البيت الوحيد ، وبعد أن تناولنا الغداء ، وانسحبت السيدات طلبا
للراحة ، وجدت نفسي بمفردي وجها لوجه أمام الغول . وجمدت الى الحد
الذي تمنى من أداء واجباتي كضيف ، ولم يفعل هو من جانبه شيئا
يساعدني به على التغلب على ارتبائي ، وجلسنا في صمت لمدة طويلة
وأخيرا تنازل وأبدى ملحوظة كانت أول وآخر شيء تفوه به فعال في صوت
خفيض هادر : «نييد (البورت) الذي أعطوه لي جيد جدا ، ولكن لماذا قدموه
الي في الكأس المخصصة لنييد (الكلاريت) ؟ ومنذ ذلك الحين وأنا أواجه
الرعاع الساخطين المهتاجين ، والقضاة الغاضبين ، والحكومات العدائية
ولكنني لم أشعر قط بذلك الرعب الذي أصابني في تلك اللحظة التي
جمدت الدم في عروقي .

كان الافتناع الأخلاقي العميق السر في نفوذ المستر جلادستون
السياسي وكانت له مهارة السياسي الذكي ، ولكنه كان مخلصا في اقتناعه
أن كل مناورة من مناوراتهم تستلهم أشرف المقاصد وأنبئ الأغراض ، وقد
لخص لا بوشير Labouchere الساخر شخصيته في قوله : وهو ككل
سياسي ، يخفي دائما شيئا في جعبته لوقت الحاجة ، ولكنه يختلف
عن الآخرين في اعتقاده بأن الله هو الذي أخفاه في جعبته ، وكان يداوب
في جدية على استشارة ضميره والرجوع اليه كما كان ضميره يداوب في
جدية على اسداء النصيح المناسب له .

وتجلى شخصيته الطاغية في القصة - سواء كانت حقيقية أم لا -
التي تصور التقاء بأحد السكارى في اجتماع ، ويبدو أن هذا الرجل
كان ينتمي الى الحزب السياسي المعارض لجلادستون ، وأنه دأب على
مقاطعته ، وأخيرا ، جمده مستر جلادستون في مكانه بنظرة من عينيه ،
وخاطبه بهذه الكلمات : « هل يسمح لي السيد - الذي لم يكتف بمقاطعتي
مرة ، بل دأب على مقاطعتي باعتراضاته - أن يوفر لي ذلك القدر الكبير من
الأدب والنوق الذي كنت لا أتوانى لحظة في توبيخه له لو أننا تبادلنا
أمكنتنا » وقد قيل - وأنا على استعداد تام لتصديق ما قيل - أن الصدمة
جعلت الرجل يفيق من سكرته فالتزم الصمت خلال بقية الآسية .

ومن الغريب ان نحو نصف أهل وطنه - بما فيهم الغالبية اعظمي
من الاثرياء - كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى مجنون أو شرير أو الى مجنون
وشرير معا ، وفي طفولتي ، كانت غالبية الأطفال الذين أعرفهم يحافظه .
وقد أكدوا لي في هيبة ووقار - كحقيقة شائعة معروفة - أن المستر
جلادستون يقوم كل صباح بطلب عشرين قبعة من أفخر القبعات من بائعين
مختلفين ، الأمر الذي يضطر زوجته الى الخروج واللف على المحلات حتى
تلغي هذا الطلب (كان هذا قبل استحداث التليفون) . وكان البروتستانت
يفترضون أنه يتآمر سرا مع الفاتيكان كما كان الأغنياء (باستثناء قلة
منهم) ينظرون اليه كما كان أكثر الاثرياء الامريكان رجعية ينظرون الى
مستر روزفلت ، ولكنه ظل هادئا لا يتأثر لانه لم يشك أبدا أن الرب كان

يسانده ويؤيده . وقد كاد أن يكون الها بالنسبة الى نصف الأمة الانجليزية .

كان لينين الذى تحدثت معه حديثا طويلا فى موسكو عام ١٩٢٠ يفاير جلاستون من الناحية السطحية مغايرة كبيرة ، ومع هذا فسنجد - إذا أدخلنا فى اعتبارنا الفرق فى الزمن والمكان والمذهب - أن هناك صفات مشتركة كثيرة تربط الرجلين ، ولنبدأ بأوجه الخلاف بينهما كان لينين فظا قاسيا ، ولم يكن جلاستون كذلك ، لم يكن لينين يحفل بالتقاليد أو يقيم لها وزنا ، فى حين أن جلاستون كان يكن كبير الاحترام لها . كان لينين يعتبر كل الوسائل التى تحقق انتصار حزبه مشروعة ، فى حين أن جلاستون كان ينظر الى السياسة على أنها لعبة لها قواعد معينة يجب مراعاتها ، وفى نظري أن كل هذه الخلافات تجعلنا نفضل جلاستون وعلى هذا الأساس فقد كانت لجلاستون بوجه عام آثار طيبة فى حين كانت آثار لينين مخربة مدمرة .

دعى الرغم من كل هذه الخلافات نجد على كل حال أن أوجه الشبه بينهما كانت لاتقل فى عمقها عن أوجه الخلاف . لقد كان لينين يفترض أنه ملحد ، ولكن الصواب جانبه فى هذا ، فقد كان يعتقد أن (الجدلية) dialectic - التى كان الأداة المنفذة لها - تسير دفة العالم ، وكان يرى نفسه مثله فى ذلك مثل جلاستون - على أنه المندوب البشرى لقوة فوق الشر . وكانت قسوته وجوره يتجليان فقط فيما يستخدم من وسائل ، وليس فيما يهدف اليه من غايات ، فهو لم يكن على استعداد لأن يشتري السلطان الشخصى بدفع الردة عن مذهبه ثمنا له . وكان كلا الرجلان يستمدان قوتهما الشخصية من الاقتناع الذى لا يتزعزع بنزاهة شخصيتهما . ومن أجل مساندة مذهبهما خاض الرجلان بسبب جهلتهما فى مناطق غريبة عنهما مما أثار السخرية منهما ، فخاض جلاستون فى نقد الكتاب المقدس . Biblical Criticism وخاض لينين فى الفلسفة .

وإذا قارنا الاثنين نجد أن جلاستون يفوق لينين فى كونه شخصية لائسى ودليلي على ذلك ما سيعتقده المرء بخصوصهما لو قدر له أن يقابل كلا منهما فى قطار دون أن يعرف حقيقة شخصيته ، فأنا مقتنع أن جلاستون فى مثل هذه الظروف كان سيظهرنى الى الحد الذى يجعلنى أعتقد أنه أحد الرجال الذين يقابلهم الإنسان فى حياته فيظنون مائلين فى ذهنه أبدا ، وكنت سافقد فى حضرته القدرة على الكلام وسأبدو كما لو كنت متفقا معه فى كل مايقول . أما لينين فعلى النقيض من ذلك ، كان يبدو لى فيما أعتقد متعصبا ضيق الأفق وساخرا (cynic) رخيصا .

وأنا لا أزعم أن مثل هذا الحكم سيكون فى محله ، فهو حكم جائر . لا لأنه غير صحيح ولكن لأنه ناقص . فعندما قابلت لينين لم يترك فى نفسى انطباع الرجل العظيم الذى توقعته ، فقد كانت انطباعاتى الحية هى نعصبه وقسوته المغولية ، وعندما سألته عن الاشتراكية فى الزراعة ، شرح لى فى سرور وابتهاج كيف انه كان يحرض الفلاحين الفقراء ضد أقرانهم الأوفر حظا وفى الحال كانوا يعلقون لهم المشانق على أقرب

شجرة، ثم يقهقه ، وكانت قهقهته وهو يذكر الذين ذبحوا بهذه الطريقة تجعل بدني يقشعر .

وكانت الصفات التي تصنع الزعيم السياسي موجودة في لينين بدرجة أقل وضوحا من جلادستون ، فأنا أشك إذا كان لينين يستطيع أن يكون زعيما في الأزمنة الهادئة غير المضطربة ، وكان يستمد قوته من حقيقة مفادها أنه يكاد يكون الوحيد في أمة حائرة مهزومة الذي لم يساوره الشك ، وظل يبشر بأمل في نصر من نوع جديد على الرغم من المصيبة العسكرية التي لحقت بأمته ، وبدأ أنه يدل على صحة انجيله الذي يبشر به عن طريق العقل الهادي الذي لا ينفعل بالمواطن ، العقل الذي يعتمد على مؤازرة المنطق كحليف له ، وهكذا بدت له عواطفه وعواطف أتباعه، كما لو كانت تتمتع بتأييد العلم لها ، وكما لو كانت الوسيلة الوحيدة التي سيتم بها خلاص العالم ، ولا بد أن روبسبير كان يملك جانباً من نفس هذه الصفة .

لقد تحدثت عن رجال كانوا بارزين بطريفة أو أخرى ، ولكنني كنت غالبا ما أتأثر في واقع الأمر برجال ونساء لانصيب لهم من الشهرة والشيء الذي وجدت ألا سبيل إلى نسيانه هو ضرب من الصفة الأخلاقية والمعنوية يتمثل في عدم تفكير الإنسان في ذاته سواء في الحياة الخاصة ، أو في شئون الحياة العامة ، أو في اقتفاء أثر الحقيقة ، ففي يوم من الأيام التحق بخدمتي بستاني لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان نموذجا كاملا للطيبة البسيطة التي كان تولستوى مولعا بتصويرها. بين الفلاحين ، وهناك إنسان اسمه د.د. مورل D.D. Morel لن أنساه ماحيت نظرا إلى طهارة قلبه ، قد بدأ حياته ككاتب شحن بضائع في ميناء ليفربول ، ثم بدأ يدرك الفظائع التي ينطوي عليها استغلال الملك لليبولد في الكونغو ، وتعين عليه حتى يعلن عن رأيه أن يضحي بوظيفته ومصدر رزقه ، وبدأ يعمل من أجل دعوته ، بمفرده أولا ، حتى استطاع تدريجيا على الرغم من معارضة كل حكومات أوروبا أن يثير الرأي العام ويضطر الحكومات إلى الإصلاح ، ثم ضحى بالمكانة الجديدة التي اكتسبها لنفسه في سبيل دعوته إلى السلام أثناء الحرب . مما أدى إلى الزج به على السجن خلال فترة الحرب .

وعاش بعد تكوين أول حكومة عمالية بوقت قصير ، واستتبعه رامزي ماك.دونالد من الوزارة حتى يصرف الناس النظر عن ماضيه هو في الدفاع عن السلام .

ومن النادر أن يكون النجاح الدنيوي من نصيب مثل هؤلاء الناس ولكنهم يلهمون من يعرفونهم الحب والاعجاب الذين يفوقان خبنا واعجابنا بمن هم أقل منهم طهارة في القلب .

خاتمه

برتراند رسل ينهى نفسه .

وبعد فاني أقدم للقارئ العربى ترجمة لعمى كنبه برتراندرسل منذ خمسة وعشرين عاما ، ينبا فيه بوفاته فى سنه ١٩٦٢ ، ونحن لا نريد بطبيعة الحال أن نتعجل نهاية ايفيلسوف المهل ، بل نتمنى أن يبقى ذخرا للانسانية والسلام ، وأن يمتد به العمر حتى يرى بشائر السلام نهل على هذا العالم الممزق الماحوم ، فيموت قرير العين لان جهوده من أجل السلام قد طرحت وأنت بعض الثمار . وآخى ما نخشى ألا يطول به الأجل حتى يرى حمامة السلام ترفرف على كوكبنا الحزين . والحافز الذى دفعنى الى اختيار النص كخاتمة لهذا الكتاب هو أن هذا النعى يلخص فى تلامذات واثل وبطريقة مجملة جوانب فى حياة الفيلسوف واتجاهاته الفلسفية ، كما يلقي ضوءا على أسلوبه الساخر الذى لم تتسع طبيعة محتويات الكتاب للتعرض له . والذى لاشك فيه أن برتراندرسل امام من أئمة السخرية فى القرن العشرين .

نعى (١٩٣٧) (١)

ب وفاة رسل الايرل التالب (أو برتراندرسل كما كن يفضل أن يسمى نفسه) فى عمر التسعين ، انفصمت حلقه تتصل بماضى سحيق جدا . وقد زار جده اللورد جون رسل رئيس الوزارة فى عهد الملكة فيكتوريا ، نابليون فى البيا . وكانت جدته من ناحية الأم صديقة لأرملة حفيد جيمس الثانى المطالب بعرش بريطانيا . وأنتج رسل فى شبابه عملا له أهميته فى المنطق الرياضى . ولكن موقفه الشاذ أثناء الحرب العالمية الاولى كشف عن خلل فى قدرته على الحكم المتزن مما لوث بصورة مطردة كتاباته الأخيرة . وربما يرجع هذا ، ولو جزئيا على الأقل الى أنه لم يتمتع بمزايا التعليم فى مدرسة خاصة Public School . ولكنه تلقى تعليمه فى منزله على أيدي مربين خاصين حتى بلغ النامنة عشرة من عمره ، عندما التحق بكلية ترينيتى بكامبريدج ، وأصبح فى الصف الرياضى السابع بتفوق عام ١٨٩٣ وزميلا عام ١٨٩٥ ، وفى خلال الخمسة عشر عاما التى تلت ألف الكتب التى ذاعت بسببها شهرته فى الأوساط العلمية وهى أسس الهندسة ، The Foundations of Geometry وفلسفة ليبنتز

(١) هذا النعى سينشر (أو لا ينشر) فى صحيفة التيمز فى عددها الصادر ١ يونيه ١٩٦٢ بمناسبة وفاتي المأسوف عليها ، وإن كانت قد جاءت متاخرة . وقد نشر هذا النعى الذى يتنبأ بالمستقبل فى اللسينر Listener عام ١٩٣٧ .

The philosophy of Leibnitz ومبادئ الرياضات The principles of Mathematics ومبادئ الرياضيات Principia Mathematica (بالاشتراك مع الدكتور أ . ن . هويتهد) ولا شك أن هذا الكتاب الأخير الذي كانت له أهمية فصول في أيامه مدين بالفضل في كثير من تفوقه الى الدكتور (وفيما بعد البروفسور) هويتهد وهو رجل يمتاز كما تبين من كتاباته اللاحقة بتلك البصيرة والعمق الروحي اللذين خلت منهما كتابات رسل بشكل واضح ، فبراهني رسل في الجدل رغم ما فيها من ذكاء وبراعة، تتجاهل الاعترافات السامية التي نتجور مجرد المنطق .

وقد أصبح هذا التجرد من العمق الروحي مؤلما بصورة واضحة خلال الحرب العالمية الاولى عندما جهر برأيه في شنودة مناديا بأن يهدف السياسة الى وضع نهايه للحرب بأسرع ما يمكن نظرا لأضرارها (ولكن يجب القول انصافا له بأنه لم يقلل على الاطلاق من شأن الشر الذي لحق ببليجيكا) ولم يكن من الممكن الوصول الى هذه النتيجة الا اذا لذت بريطانيا بالحياة، وانتصرت ألمانيا . ويجب أن نفترض أن دراسته للرياضة جعلته ينظر الى الامور نظرة كمية خاطئة منجاهلة المبدأ الذي يقبع وراء الاشياء . واستمر طوال مدة الحرب في حنه لانهايتها تحت أية شروط مهما كانت . ونجودته ترينيتي كوليدج - وهي محقة في ذلك - من استاذيته ، وزج به في السجن مدة بضعة أشهر من عام ١٩١٨ .

وفي عام ١٩٢٠ زار روسيا زيارة قصيرة ، ولم نترك حكومتها انرا طيبا فيه ثم زار الصين لمدة أطول حيث استمتع بالمذهب العقلي الذي يتمثل في حضارتها التقليدية بما فيها من رائحة زكية مازالت باقية . . . رائحة كان شذاها يعطر القرن الثامن عشر (١) . وفي السنوات التالية تبدد نشاطه في كتابات ندافع عن الاشتراكية والاصلاح التعليمي وتحبيس قوانين اخلاقية خاصة بالزواج أقل نزمتا . ولكنه كان على كل حال يعود أحيانا الى موضوع لاينير اهتمام عامة الناس كما نثيرها هذه الموضوعات . وكتاباته التاريخية تخفى عن القراء عن طريق أسلوبها وعنصر الدعاية فيها سطحية المذهب العقلي البالي الذي ظل يدين به حتى آخر أيامه .

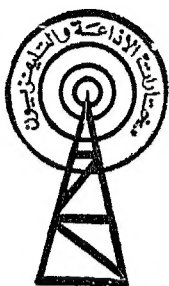
وفي الحرب العالمية الثانية ، لم يلعب دورا في الحياة العامة ، فقد هرب الى دولة محايدة قبل نشوب الحرب مباشرة . وكان من عادته أن يقول في أحاديثه الخاصة ، انه من الطبيعي أن ينصرف المجانين المتعطشون للقتل الى قضاء بعضهم على بعض ، ولكن يجب على العقلاء أن يبتعدوا عن طريقهم وهم يفعلون ذلك . ولحسن الحظ أن هذه النظرة التي تذكرنا بينتام (٢) قد أصبحت نادرة الوجود في هذا العصر ، الذي يرى أن للبطولة قيمة مستقلة عن نفعها . حقا لقد أصاب الدمار الشيء الكثير من

(١) لاحظ أن القرن الثامن عشر في أوروبا يمثل استكمال ملامح المذهب العقلي الذي يدين به رسل .

(٢) Bentham . فيلسوف انجليزى أسس المدرسة النفعية في الفلسفة في أوائل القرن التاسع عشر . وأهم ما يميز هذا المذهب الايمان المطلق بالعقل وقيمة العلم ونبتد العواطف والدين .

العالم الذى كان متمدناً فى يوم من الأيام ولكن لا يمكن لانسان سديد
الرأى أن يزعم أن الذين ماتوا من أجل الحق فى النضال العظيم قد قضوا
عبثاً .

وكانت حياته ، على الرغم مما فيها من شذوذ ، تنسجم بالانسجام
الفكرى الذى عفا عليه الدهر ، مما يذكرنا بالمتمردين الأرستقراط فى
مطلع القرن التاسع عشر . وكانت مبادئه غريبة ولكن هذه المبادئ كانت
تهيمن على أفعاله ، ولم يظهر فى حياته الخاصة شيئاً من المارارة التى
تفسد كتاباته ، فقد كان محدثاً بشوشاً مرححاً لا يخلو من العاطفة
الانسانية . وكان له أصدقاء عديدون ، ولكنه عاش بعد أن شيع معظمهم
الى مثواهم الأخير . وعلى الرغم من ذلك بدا رسل فى سنه المتقدمة
للغاية ، للباقيين من أصدقائه على قيد الحياة ، مليئاً بالبهجة والاستمتاع
بالحياة ويرجع هذا الى صحته الموفورة التى لم يطرأ عليها أى تغيير ، مافى
ذلك شك . وقد كان معزولاً فى آخر أعوامه من الناحية السياسية كما
كان ميلتون معزولاً بعد رجوع الملكية الى انجلترا . وهو آخر رجل بقى
على قيد الحياة من عصر ولى وانقضى .



١٥٧ شارع عبید - روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ - ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢ - ٤٥٣٤٦



العدد ١٢

العدد ١٦